

Gaylord

PAMPHLET BINDER

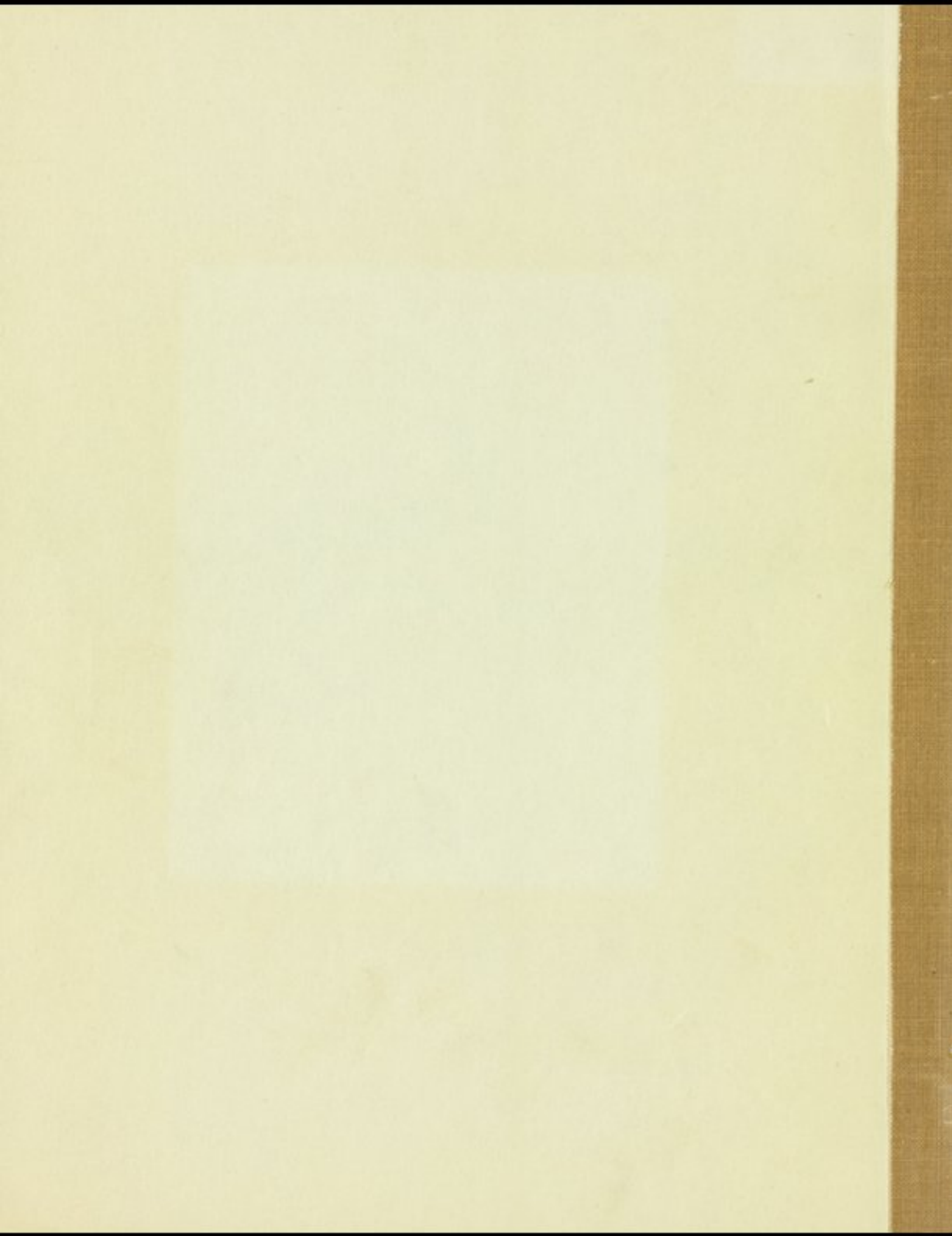
Syracuse, N. Y.

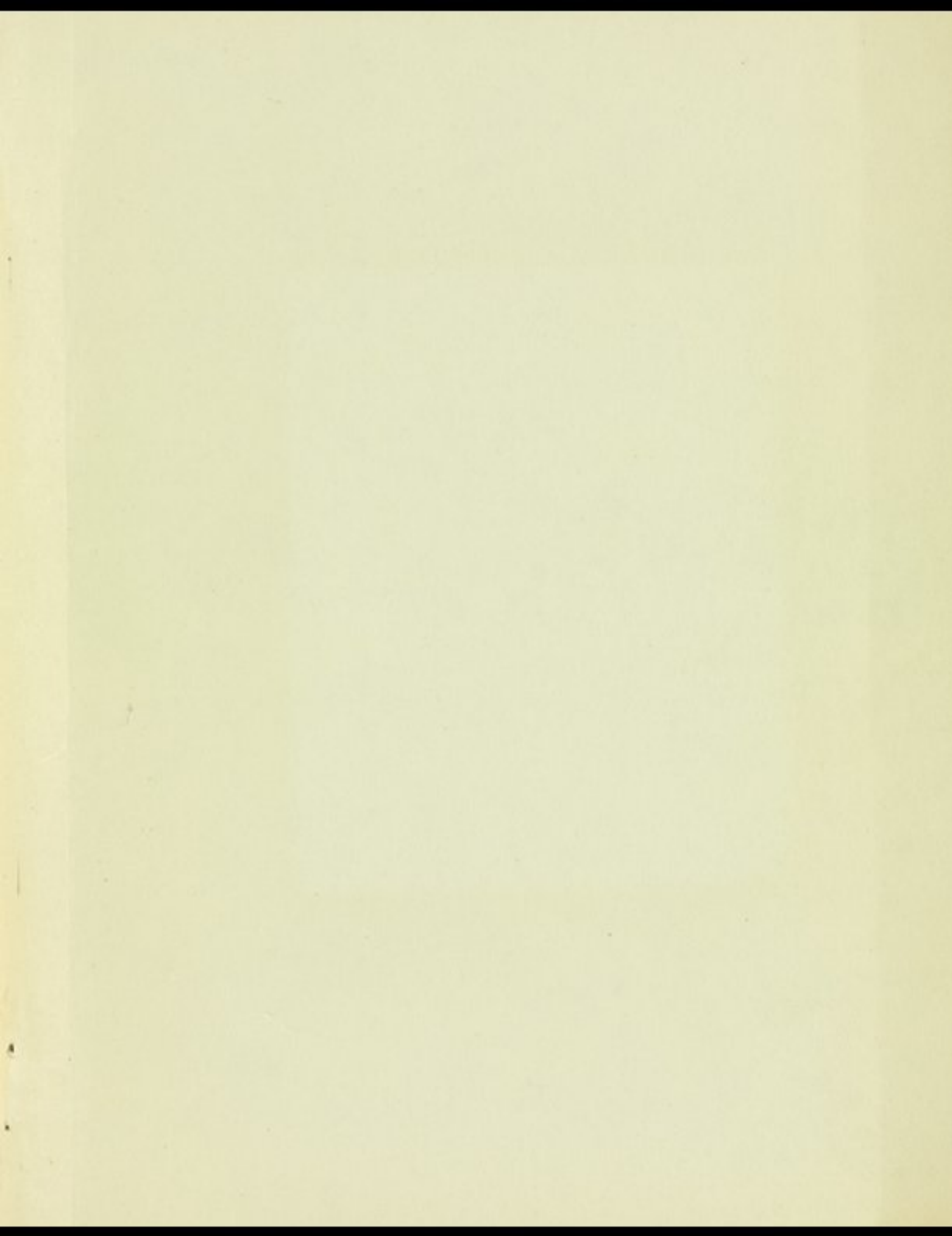
Stockton, Calif.

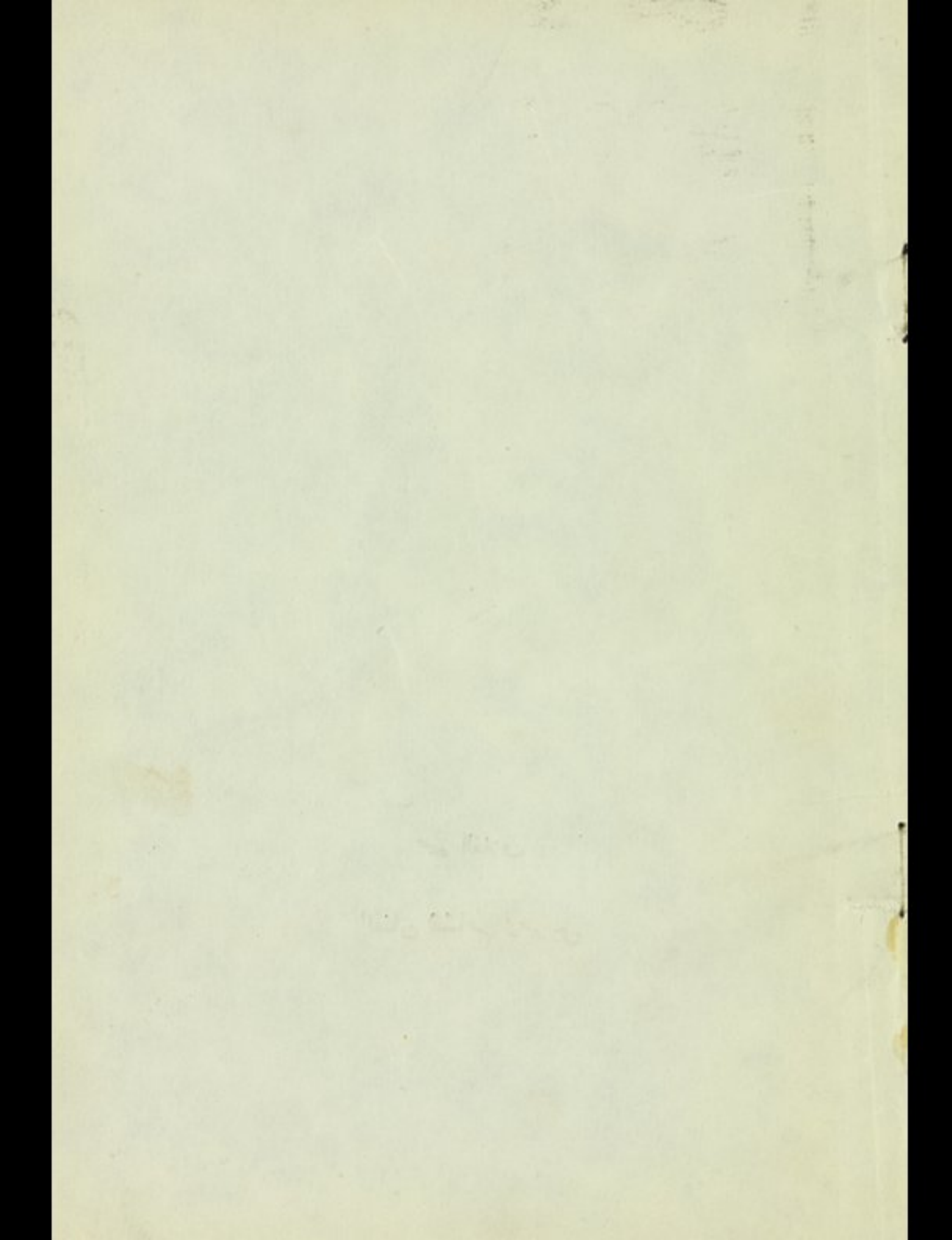
Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES









صمم الغلاف

الفنان هشام زمرين

هَدِيَّة

وزارة الثقافة والارشاد القومي في الاقليم السوري
مديرية التأليف والترجمة

حتى القطرة الأخيرة

تأليف

فارس زرزور

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر بدمشق

السلسلة القصصية

ميكه

~~956.9~~
~~5x27~~
~~2~~

956.9
5x27
2

ميكه

ميكه

حتى القطة الأخيرة

كان هو والرشيح وحيدين متعاقبين في الظلام ، كانا اسودين صامتين كأنهما قطعة من الارض التي افترشاها ، حانياً أحدهما على الآخر كتوأمين ملتصقين ، ينبض في جسدهما قلب واحد .

كانت حياة احدهما متعلقة بالآخر ، لا يمكن لأحدهما أن يعيش دون رفيقه بأي حال من الاحوال . ولعل في وجود السر الذي يجمعها يكمن السبب الحقيقي لكل ذلك ، إذ على حياتها مجتمعين تتوقف ارواح احد عشر جندياً وضابط . . .

كانت الحفرة التي يفترشانها تقع على سفح مرتفع بسيط من الأرض تخفيها عن الانظار وتقيها من نيران العدو التي قد تأتي بخط مستقيم ، وهذه الحفرة تطل على سهل منبسط الى اليمين ، وتشرف على واد ضيق في الوسط ، يحده من اليسار مرتفع آخر مناظر للمرتفع الذي انبسطت الحفرة على سفحه .

كان الرامي منذ ساعتين انقضتا يسلي نفسه بترتيب وضع

مريح يسهل له المهمة التي عهد اليه بتنفيذها ويكفل له قضاء ليلة سعيدة يناجي فيها النجوم قبل ان يبدأ حديث النار .

وعندما انتهى من تهيئة الوضع ومهد لجسده طولاً وعمقاً كافيين وضع امتعته الى جانبه ، وثبت ركيزة الرشيش في مكانها حسب قياس معين ثم تنفس الصعداء .

واستلقى الى جانب سلاحه واضعاً يديه تحت رأسه كوسادة ووجهه شطر السماء .. ومالبت في هذا الوضع بضع دقائق حتى أحس بأنه على وشك الضياع ، فقد الفى نفسه شيئاً فشيئاً دون ان يشعر قد اصبح في السماء نجماً متألّقاً وسط النجوم .

وكاد يغمض عينيه على هذه الحقيقة .. على هذا الحلم اللذيذ .. كاد يستسلم لاغفاءة طويلة الامد ، لولا أن أحس بهاتف يصرخ فيه من قرارة نفسه : حسين أين أنت ..؟ لماذا جئت ؟ وماذا تفعل ..؟

وغيرَ حينئذ من وضع استلقائه فأخذ وضع الرامي منبطحاً ، وراح يخترق ظلمة الليل .. لم يكن يرى شيئاً الى أبعد من خطوتين .. كان الظلام دامساً أسود .. ومع ذلك راح ينظر ويجهد نفسه في النظر . لاشيء . كل شيء أسود . . لا يهيمه ذلك ، انه يعرف الهدف ، وقد وضع السلاح باتجاهه ،

وما عليه فقط إلا أن يضغط الزناد ويلقم الرشيش ذخيره مخزناً
وراء مخزن .. هذا كل مايراد منه .

وعلى كل حال انه يعرف هدفه ، لقد درسه دراسة تامة ،
ورآه بعينه ، وقاس بعده وارتفاعه ، وتعرف على حدوده من
اليمن والشمال والأمام والخلف ، ان هذا لايمهم ، عليه فقط ،
عند بدء الاشارة ، ان يضغط على الزناد ..

وراح يقدر الوقت بذهنه ، اذا كانت الامور تسير سيراً
حسناً فسيبدأ مهمته بعد ربع ساعة أو عشرين دقيقة على أبعد تقدير .هاقد
مضت عليه ساعتان وحيداً، وساعتان كافيتان لأن يصلوا الى الهدف ، وربع
ساعة للقيام بالمهمة ، إذن بعد ربع ساعة سينتهي كل شيء ، وأصاخ السمع ..
كان الطقس لطيفاً في ذلك اليوم من أيام مايو ، وفي النسيم الدافئ يحلو
للحشرات والزواحف ان تنزله على طبيعتها، وللطيور السوداء ان تصدر بين
آونة وأخرى صوتاً أو صوتين لتتعارف أو لتنشد نشيد السعادة ،
ولكن هل هذا ممكن ..! واصاخ السمع بكل جوارحه .. ان
حركة تصدر من الوادي الى جانبه .. ولكن .. هل رجعوا ؟
كيف ؟ كيف يرجعون دون أن تنتهي المهمة ..؟ هل هم الذين
يرجعون ؟ لاشك في ذلك .. انها أصوات اقدم .. .
اقدام حقيقية تصطدم بالاحجار .. انها ليست أصوات زواحف أو
طيور .. لا .. انها اصوات آدمية تصدر منها دمدمة مكبوتة ..
وتمنى لو يصير جميعه أذناً كبيرة .. أذناً فقط ، ليفهم شيئاً مما

يبددم به العائدون ، وكاد يصرخ فيهم : من هناك ؟ ولكن .. .
كيف يصرخ ؟ ربما يسمع الاعداء فتفشل الخطة .. ووضع يده
على الزناد .. هل أطلق النار ؟ وعلى من أطلق ؟ لست أدري .. ان
هذه طريق عودتهم . ولكن ليس الآن .. انها طريق العودة
عندما يتهبون من المهمة .. والمهمة لم تنته بعد .. كيف حدث
ذلك ؟ .. هاهم .. انهم يقتربون اكثر .. لقد اصبحوا على بمد
خمسین متراً .. ان أشباحهم تترأى له في الظلال .. انهم آدميون .
وحبس انفاسه .. وتقلص على نفسه ، وأصبح كتلة من
عصب ، ووجد اصبعه من تلقائها تشد نفسها الى الخلف والزناد
يتراجع شيئاً فشيئاً ، فمالك نفسه وأرجع أصبعه الى الامام ..
هل أبدلوا المهمة ؟ هل أسروا قبضة من الاعداء واكتفوا
بهذا الانتصار ؟ لايمكن .. ان المهمة الاساسية غير هذه ،
ولايمكن ابدالها مها كانت الظروف .. اذاً ؟ .

وترامى الى سمعه صوت .. ان هذا ليس كلاماً عريباً .. .
لاشك انها دورية يهودية .. ولكن ماذا أتى بها في هذه الساعة ؟
هل يطلق النار ؟ ستفشل الخطة .. وليس معه - فضلاً عن
ذلك - امر باطلاق النار في مثل هذه الحالات .. ان المهمة
الاساسية هي في مقدمة كل شيء .

واقترب اليهود .. اقتربوا بصورة لم يبق معها مجال للتفكير ،
لقد اصبحوا الى جانبه تماماً .. خطوتين فقط ، ويضحون فوق
رأسه .. ترى هل يوجد معهم أحد من الاصدقاء ، هل هم أسرى ؟
لا .. انهم يسرون ملء حريتهم اذن .. هه ..

ولم حذاء قرب رأسه ، وسمع صرخة هائلة تبعها طلق ناري ..
ثم .. ثم صمت كل شيء ..

عندما أفاق الرامي من دهشته ايقن تماماً على نحو لا يقبل
الشك أو الجدل ان اليهود قد ولوا هارين وذلك لسبب بسيط
جداً ، فقد ظنوا أنفسهم قد وقعوا في كمين كبير ، اذ لم يعد
يسمع او يرى لهم أي أثر ..

ولكن ماهذا الذي .. آه .. حقاً ، هل يمكن ؟ وتحسن
ساعده ، كان هناك شيء حار يسيل من ساعده ويتدفق كالينبوع
من أطراف أصابعه اليسرى .. لاشك انني جرحت . ان ذلك
الصوت الثاقب الذي تبع صرخة الرعب لم يكن غير رصاصه
استقرت في ساعدي ، وعلى هذا فأنا الآن جريح ، لا بأس ..

وعندما هدأت أعصابه ، أحس بصورة واضحة بأن هذا السائل
الحار الذي يتدفق من بين أصابعه لم يكن غير الدم .. وهو على كل
حال بدأ يشعر بوخزة مؤلمة في مكان انبثاقه .. نعم .. لقد استقرت

الرصاص في ساعده ، فتح جعبته الامامية في هدوء واخرج منها الضماد . . . وفكر : هل أنزع ملابسي أم أضمد فوقها ؟ وقدّر الزمن اللازم لذلك وهز رأسه .. لقد انتهى الوقت ، علي أن أتأهب لفتح النار ..

واستطاع بطريقة ما أن يربط ساعده من أعلى الجرح وفقاً للتعليمات الاولية التي يتلقاها كل جندي ليمنع تسرب الدم من القلب الى الخارج ، وجفف يده بالضماد واتخذ وضعا يستريح فيه بعض الشيء .. ليس هناك اقصى من أن يعد الانسان الزمن ، ثانية وراء ثانية ، خاصة اذا كان هذا الانسان ينتظر في كل ثانية أن يحدث انفجار مدمر يهز الارض والسماء ، وبطيح بآلاف الصناديق من الذخيرة والقنابل والعتاد، ثم يبدأ بعدها فتح النار ، ليحمي رفاقه الجنود الذين قاموا بعملية التفجير ..

ورامي الرشيش الجندي الأول حسين هايل العلي الذي جرح في ساعده ، والدم راح يتدفق من يده .. ينتظر هذه اللحظة . انه الجندي الذي كلف بحماية رفاقه اثناء الانسحاب من اغارتهم على مستودع ذخيرة العدو ، عليه عند سماع صوت الانفجار ان يفتح النار على بناء مجاور لمستودع الذخيرة يكون مهجماً للحرس ، « بناء أبيض له نافذتان » ، انه ينتظر هذه اللحظة و ينتظرها بدقات قلبه وهيجان اعصابه . ان تعبير (بدقات قلبه) ينطبق

على الحقيقة تماماً لأن قلبه بدأ يعمل بشكل سريع لسببين : لحساب الزمن ، ولشيء آخر صار أكثر منه أهمية ، هو خلق دم جديد. ومضت دقيقة .. فدقيقتان .. فعشر .. فعشرون .. فساعة .. تعب فيها القلب وكاد يكف عن الخفقان كان الرامي خلال الدقيقة الأولى لا يفكر في شيء على الإطلاق .. صوت انفجار .. ثم الضغط على الزناد .. غير أنه بدأ بعد مضي ذلك الزمن الطويل يبدل تفكيره .. بدأ يهتم بساعده ، خاصة وان ألماً حاداً عميقاً بدأ يمزق جسده .. وكاد يصرخ من الذعر عندما تحسس كم معطفه فوجده يقطر دماً مما اضطره الى عصره بيده السليمة ليخفف وزنه قليلاً ، فلا يسبب ثقلاً أكثر على ساعده .

وأيقن بعد قليل أنه لم يعد يستطيع الاستفادة من ساعده الايسر بأي حال من الاحوال .. وبعقب هذا اليقين شعور بأن كل شيء قد فات . . ودغدغت احاسيسه اشياء سموها . . الفراغ والراحة والنوم الابدي ..

أحس بهذه الرغبة بصورة اكيدة ، فراحت تلح عليه :
نم .. نم .. واسترح .. وأحس شيئاً فشيئاً بأن قواه تتلاشى وتسحب منه كما تسحب الشعرة من العجين .. وراحت عيناه تذبلان ، وتوحيان اليه بأنه اذا ضم جفنيه ودانى ماينها ملك سعادة ابدية .. سعادة لا يمكن ان يحصل عليها مادام على قيد الحياة ..

سعادة ، لا يمكن ان توصف او ان تعرف . . سعادة فوق
سعادة البشر ..

وفعالاً راح الخدر يتمشى في اوصاله ، ويزحف ويبدأ ويبدأ
مع الدم الذي ينبثق من قلبه ليداعب الشعيرات الضئيلة التي
تكسو جلد صدره وظهره .

وتمثلت له الحياة الغالية طفلاً صغيراً اسمه النوم تهزه أمه هزاً
رفيقاً وهو يطبق جفنيه بهدوء وهناء .. واوحى له الليل بأن
ما بينه وبين ما يتمنى ، من عظمة وقداسة وسمو وكل ما انفع وثار
وأحب وكره بسببه ، وكل ما عاش حياته كلها من أجله ..
يتمثل جميعه بين حيزين بسيطين .. يتمثل جميعه بين جفنيه . .
النوم .. يلهذه البهجة ! يلهذه السعادة ! يلهذا الخلود ! . نعم ،
في النوم الخلود .

وصحا فجأة .. لم يدرك كم مضى من الليل ، وتطلع الى
السماء فوجد النجوم تتغامز ، وأحس مرة ثانية بأنه يشارك
النجوم السهاد .. النجوم .. هذه المخلوقات الضئيلة في السماء ،
انها تشتهي النوم .. لقد نقصت قليلاً عن ذي قبل ، لاشك انها
ذهبت لتنام . ولاك لسانه في فمه ، فوجده يابساً كالخطبة ، ومد يده
الى مطرته فوجدها فارغة .. وكاد يلعن نفسه لولا انه تذكر
انه شربها على دفعتين بعد اصابته بالجرح . . وامتدت يده الى

الحقيبتين الى جواره ، وحاول أن يرفع احدها فسقطت . . حسناً
واليد الاخرى اصبحت عاطلة ، ولكن يجب أن أحمل المخازن
الى الرشيش .

وتحسس السلاح .. كان بارداً كالثلج .. صامتاً .. أسود ..
أخرس لا ينطق .. لا بأس .. ووصلت يده الى المخزن المملوء
بالخرطوش فوق فتحة الرشيش .. كان ثابتاً جاهزاً ..

ماهذا الطنين ؟ .. واصاخ السمع . . انه صادر من رأسه
ولاشك .. طنين متواصل : وش .. وش .. وأحس بقواه
المجربة - بكل ما بقي له من قوى - أحس بالرعب ، ماذا لو حدث
الانفجار ولم اسمعه ؟ هل يمكن ؟ ترى أتكون المهمة قد انتهت ؟
وماذا حدث للملازم ورفاقي الاحد عشر جندياً بينهم سليمان وخالد
وخضر ومحمود وحسان و .. ؟

وأحس بيد ساخنة تهدد ظهره .. نم .. نم .. ايها الطفل
الصغير .. ورأى الملازم يقلده وساماً حريماً كبيراً بينما أمه
تبكي من الفرح وأخته الصغيرة تغني أغنية حزينة ووجها مطلي
بطلاء اصفر .. كل شيء اصفر .. حتى الوسام كان اصفر . .
والملازم يرتدي بزة صفراء .. ثم رأى نفسه يأكل بطيخة صفراء ،
'مرّة وحامضة ، أحس بعدها بالغثيان ، فأراد ان يتقيأها فلم
يستطع . وأحس بالألم .. وراحت امعاؤه تتفتت ، قطعة إثر قطعة ،

فسفحت أمه على بدنه العاري سطل ماء ساخن ، ساخن جداً ..
ووقع السطل فوق رأسه فأحدث ... أحدث انفجاراً اهتزت له
الارض ، وتصاعدت ألسنة عالية من اللهب تبعها انفجار .. وانفجار ..
وفتح عينيه .. كانت اصبعه تضغط ، على الزناد ومن فوهة
الرشيح ينطلق انبوب طويل من النار يصل الى بناء أبيض ،
ويحترق نافذتين كبيرتين الى جانب ألسنة اللهب التي تغزو السماء .
وفي الساعة الثالثة من صباح السادس عشر من أيار سنة ١٩٤٨
تلقى آمر احد افواج الحدود البرقية التالية :
نفذت المهمة : . . الخسائر شهيد واحد .. (الجندي الاول

حسين هايل العلي)

ملاحظة : (أطلب له وساماً)



حفت من تراب

عندما كان « محمد الجابه » يغوص في مقعده وسط الطائرة الكبيرة ، راودته لأول مرة في حياته فكرة الوطن .

مامعنى هذه الكلمة ؟ ولماذا ينشدها الناس ؟ بل لماذا يموتون في سبيل هذا الشيء الذي يسمونه الوطن ؟ وتساءل لأول مرة في حياته ، أين هو وطنه ؟ أهو هناك في فلسطين حيث تتأب أمه العجوز ، وتفني حياتها في الصلاة وخدمة الناس والثرثرة مع هذه وتلك ؟ أم هنا حيث استطاع أن يجمع آلاف الليرات الانكليزية أم حصان ! وحيث تمكن من أن يملك بيتاً ويفتح متجرأ ويصاحب مئات الفتيات الرشيقات الجميلات ؟ فأية صلة عادت تربطه بتلك الارض التي يسمونها مسقط رأسه وليس له هناك شيء من الاشياء . لا من أرض ولا من بيت ولا حتى من مسبار جحا . بل ربما لم يكن قد ولد حتى في أرض من الاراضي . وقد تذكر فعلاً أن أمه كانت تقول إنه سقط منها منها بسهولة فائقة ، عندما كان يعذبها أحد الجنود الانكليز أثناء

بمختمهم عن أبيه الذي كانوا يسمونه الشقي المارق الخارج على القانون . وانه لا يدري بالضبط أسقط في معسكر انكليزي ، أم في أحد قوارب الصيد في الطريق الى المنفى . وهو عندما يتذكر طفولته وصباه لا يشعر بأية ذكرى حسنة نحو أحد من الناس أو نحو قطعة من الارض أو شجرة أو ساقية أو نحو أي شيء . حتى أن أباه الذي يحتفظ له بصورة باهتة لم تكن ذكراه بالنسبة اليه عالية جداً ان لم تكن لاقيمة لها على الاطلاق .

وهو على أي حال لم يكن يعرف عن أبيه سوى أنه أحد الفلاحين أو الأجراء الذين لا يملكون غير كد اليمين وعرق الجبين ، وانه كان يكلفه ثمن الحذاء الفلاحي أو طاوية القطن ما يزيد عن وزنها دموعاً . وعندما مات لم يبك عليه كثيراً بل ربما لم يشعر بشيء من الحزن عليه . فلقد مات ابوه والسلام . وكل ما كان قد جمعه خلال حياته القصيرة أخذه معه . واذا أراد أن يتحرى الصدق والحقيقة في هذه القضية فيجب ان يقول انه مات مديناً .. بطفله وزوجته وثمان الكفن .

أما أمه — وهذا هو السبب الوحيد الذي جعله يحرك دماغه بعض الوقت — فيمكن نقلها كأى متاع آخر غير ملتصق بالارض . ومسبحتها تعلقها برقبته وتريحها من عناء كبير ، وأرض الله واسعة وفي مسورها أن تصلي في أي مكان .

وإذا كان مفهوم الوطن ، هو المكان الذي يعيش فيه الانسان
عزیزاً حراً وسيد نفسه ، فهنا في « البرازيل » خير مكان .
هنا ينادونه الناس « سنيور جاجه » ويحس في قرارة نفسه أنه
« سنيور » حقاً وفعلاً . انه ليس « جاجة » فقط بل ديك رومي
ضخم يشق بمنقاره الحديد . وله هنا بيت كبير بل « فيلا » نفحة ،
وبستان بجنان السموات ، ومتجر ضخم يلعب في خزائنه الذهب كما
يلعب الفأر في حواكير قريته . وهو اذا مادعي يوماً للدفاع
عن شيء من الأشياء ، فلن يكون دفاعه عن غير بيته ومتجره
ومكان سعادته .

ولقد مضى عليه هنا ما ينوف عن عشرين سنة ، تعلم خلالها
اللغة « السبنيولية » قراءة وكتابة وكلاماً في حين أنه خرج من
قريته أمياً أعجم كالجمار .

وهو اذا ما أراد أن يفتش هناك عن الاهل والاصحاب
والأحباب ، فلن يجد شيئاً من كل هذا ، حتى مرتع الصبا الذي
يتغنى به الشعراء مفقود أيضاً . لقد كان هناك صبيلاً حقاً ، غير
أنه لم يكن يرتع كما يرتع الراءعون . فقد بدأ يعمل أجيراً منذ
أن حمل نفسه ، فلا اصحاب ولا احباب حتى ولا من يحس
بوجوده على الاطلاق .

وإذا كانت أمه هناك قد استسلمت الى حياة الركود والطمأنينة

والسلام في ظلال خدمة الناس والعيش على فترات مواعيدهم حتى مات فيها كل شعور بالكرامة الانسانية اذا كانت أمه هناك قد اعتادت على كل ذلك ، فليس أسهل من أن يعاد إليها رشدها ، وتكفر شيئاً فشيئاً بحياة العبيد ، وأن تؤمن بأنها انسانية لها حق العيش والحياة .

وعاد «السنيور» الى رشده دفعة واحدة ، ونظر في ساعته ، وتهدد كقامر خاسر . لقد أضع نصف ساعة في جنون فارغ . سيقفز الى هناك من الطائرة ، فيضع على قبر أبيه (جرزة) آس ، ويجلب أمه معه وينتهي كل شيء .

وراحت الطائرة الكبيرة تحلق بين الغيوم بلا هديرها الفضاء ، وربما الأرض أيضاً ، ثم تهوي دفعة واحدة لتستقر على طبقة جديدة من الهواء كأنما هي سفينة تتلاطمها أمواج غير منظورة . وعلى المقاعد المصفوفة يستلقي أناس ، قبعاتهم فوق وجوههم وأيديهم على صدورهم ، ينامون أو يتناومون .

وبين لحظة وأخرى تنزل في الوسط مضيئة ، رشيقة تبدو من الخلف كبنيت مدرسة ومن الامم كجد ضئيل عجوز ، طلي وجهه للتسلية . وخلال ذلك أخذ السنيور محمد يطل على الأرض أو البحر ويفكر . ست وثلاثون ساعة ذهاباً وأخرى إياباً ويومان احتياط . لن يتأخر على أي حال . ان المتجر سيفوته كثير من الارباح . لمن الله اليهود ، وهذه القضية كم هم عزعجون ! كان لولاهم خالي البال ، لا يفكر في أشياء عميقة ولا سفر ولا ما يحزنون .

ألم يجدوا في غير فلسطين أرضاً يسكنونها ؟ لقد قرأ أخيراً في بعض الجرائد الأمريكية : « ان اليهود لا يكفيهم النصف بل انهم بحاجة لأن يقطعوا أقساماً أخرى ، وان العرب أيضاً لم يرضوا بالتقسيم ، فراحوا يحتجون ويصرخون . يا لله ! ما هذه المشاكل المعقدة التي تتعب الفكر وتقلق البال ؟ ولم يشأ أن يزعج نفسه اكثر من ذلك ، فاستلقى في مقعده واستسلم لرقاد عميق .

ووجد القرية هي نفسها : بضعة أكواخ طينية متفرقة متظامنة ، وفي وسطها بيت ابيض ، يعاو نسبياً عما حوله . التراب نفسه والقش نفسه ، والساكنون أنفسهم . رجال ونساء وأطفال وكلاب ، كلهم يسرون بكلل أو يستلقون تحت أشعة الشمس . لا شيء جديد ، هاهي عشر سنوات مضت في الخارج . بيد أنهم هنا لا يحسون بمرور الزمن . سنة ، سنتان ، قرون ، كل شيء هادئ ، الشمس تشرق وتغرب ، والمطر يهطل أو يتوقف ، والكلاب تعوي وأطفال يولدون ويعمون ويموتون .. خرج الانكليز وجاء اليهود ، والخراب هو الخراب .

وسأل رجلاً صادفه : أين تسكن أم محمد الجاجه ؟ .. لماذا لا يتكلم هؤلاء الناس ؟ أي نكبة سحقتهم .. لماذا ينظرون إلي هكذا ؟ عليهم يظنوني يهوديا ؟ يجب ان أظهر هويتي . انهم لا يجيبون بل لا يكادون يروني ! .. ونزع قبعته .

أين تسكن أم محمد الجاجة ؟ .. وينظر إليه الصبي يبلاهة
ولا يجيب . يبدو أنه لا يتكلم العربية بصورة سليمة ؟ وراجع
سؤاله بينه وبين نفسه .. أين ؟ صحيح اني لا أخطيء . يجب أن
أسأل رجلاً .. ها هو ذا .. انه يحمل بندقية وقد طرز صدره بالرصاص .

- مرحباً يا شب

- مرحباً

- أنا محمد الجاجة

- أهلاً

- ألا تعرفني ؟

- بلا صغرة

- ان أمي تسكن هنا .. أم محمد زوجة ابي محمد .. و ..

- ماذا تريد ؟

- جئت من البرازيل لآخذها ..

وجلس المجاهد على الارض ووضع بندقيته في حجره وراح ينظف

فوهتها بخرقة بالية .

وأجاب بعد تردد قصير:

- انني لست من هذه القرية .. هل تريد أحداً ؟

وتجمهر حول السنيور بعض الاطفال العراة ، وراحوا يرفعون

رؤوسهم الى أعلى ، ويغمضون اجفانهم المتورمة ، وتجراً احدهم فتلمس

بنطال الرجل فنهرهم .

- كش يا أولاد العمى ..

ولم يجد السنيور محمد بدأ من أن يتخذ طريقه الى البيت الكبير .. ودخل المضافة .. هنا يصطف رجال مسلحون حتى ذقونهم . ويبدون ثقلاً كالمدرعات . يظهر ان القرية بحالة حرب .

- السلام عليكم .

كانوا يتناقشون :

- انا وسعيد وصالح على رأس التل وحسين والباقي في الوادي، هنا كمين جيد . سنحيط القرية من الجانبين .. نعم .. احسن طريقة . وتقدم من السنيور كهل تلتمع في عينيه شرارات حمراء .

- أهلا وسهلاً .

- هل تستطيع ان أجد والدتي ؟ أنا ابن ام محمد ..

- ها . حضرتك محمد .. تفضل .

وتلاشى الرجل روحاً وجسداً كأنما سحقته قاطرة مسرعة عندما علم بالخبر . لقد ماتت أمه منذ ثلاثة اشهر . وفكر :

ليس لي هنا أحد . أنا غريب .. غريب جداً حتى على نفسي . يجب ان ارجع .. ارجع في الحال .. ان القرية في حال حرب وهي مهددة في كل لحظة بهجوم اليهود .. ماهذه المفاجأة .. امي ميتة والقرية مهددة، وبدأ يحرك دماغه من جديد كما لم يحركه في يوم من الايام .. سيحاول اليهود الهجوم على القرية فاذا عجز رجالها عن صد العدوان .. في هذه الحال لن يخسر شيئاً مادياً ، فاذا فكر

في نفسه فهو برازيلي ، ليست له أي صلة بهذه القرية ، وسيجد طريقة ..
أي طريقة للخلاص . اما أمه التي جاء لينقلها الى هناك فهي الآن جثة
باردة تحت التراب .

أمه جثة ميتة لا يمكن نقلها .. سيتركها هنا .. حسناً ..
وينصرف وحده .. لا شيء .. من هو ؟ .. وتحرك شيء في اعماقه ،
شيء ثقيل جداً كالحوت النائم في قاع البحار . وبدأ هذا الشيء
يزحف ويتململ ويحرك زعانفه . لقد افاق . أحس بالجوع والظماً
فقد نام طويلاً إثر سكرة من سكرات المال والعمل . أمه في
التراب ، تسكن في الارض وفوقها أحجار وطين وشاهدة بيضاء .
وربما أبوه أيضاً . أبوه الذي لم يفكر فيه كما فكر في أمه ، ربما ينام
الى جانبها ايضاً . هنا في هذه الارض يسكن أبوه وأمه .
و شاء ان ينفذ عن رأسه هذه الافكار المقلقة ، ان يضرب
الحوت على أم رأسه . ماذا يفعل ؟ هل يترك كل شيء وينسى
كل شيء إلا نفسه ؟ نفسه . ولكنه هذه النفس ألا
يجب ان تمتليء بشيء ؟ .. ان تحتزن ذكرى من الذكريات ،
عاطفة من العواطف .. أشياء تسليه ، تسعده ، أو تعذبه ، أشياء
تشعره بأنه انسان . وأحس لأول مرة في حياته بأن نفسه
عارية .. عارية على الاطلاق ، فارغة قاحلة جوفاء ، لا يملؤها شيء .
المال ، الذهب ، الحياة المترفة ، ماذا فعلت هذه الاشياء ؟ لقد

اسكرت الحوت ، جعلته ينام نومة طويلة . ترى هل هذا هو الوطن ؟ هذا الحب هل هو حب الوطن حب الارض وحب التراب ؟ واذا داس الاعداء قبريها بأحذيتهم ودكوا معالمها ، فماذا يحدث ؟ هل يعتبر أن الأمر قد انتهى وان لاشيء يصله بأي كائن من الكائنات ؟ وبعد عشر سنين أو عشرين سنة أو أقل أو أكثر ، اذا أراد أن يفكر في لحظة من لحظات فراغه بأمه وأبيه ، بقبريها فماذا يحدث ؟ ماذا يكون لو مد يده الى قرارة نفسه فلم يجد شيئاً يقبض عليه ؟ وأحس بدوار هائل كأنما سقط من الطائرة . شيء مخيف .. الذكريات .. انها أثنى مما كان يعتقد ، أثنى من الذهب . وحاول أن يذكر أعز شيء لديه ، متجراً ، « فيللا » ، فتاة رائعة ، ذهباً انكليزيا ، مئات الزبائن ، حفلات رقص وغناء .. موسيقى .. وأغمض عينيه . انه لا يستطيع أن يمك شيئاً . ليس هناك غير الفراغ البشع الرهيب .

ونفض المغترب وراح يحوس خلال المقابر . وبمساعدة بعض المجاهدين العرب عثر على قبرين متجاورين : الأب والأم . وجلس الرجل بين ابويه وطوق رأسه بساعديه ، وراح يتحسس مشاعره بهدوء . وقال للدليل :

— أخي .. هل يتوقع هجوم اليهود ؟

— ربما .. غير أن هنا رجالا يدافعون عن كل ذرة من

هذه القرية .

— هل أستطيع أن أعتز على بندقيتي . سأنام هنا ، هذه الليلة
لأدافع عن أهلي .

— بكل سرور أيها الأخ .. خذ بندقيتي وخراطيبي .. ان
عندي مسدسين ، وقنابل يدوية . ونحن بحاجة الى أعوان على
كل حال . ابق حيث أنت وأطلق النار عندما تشاهد أحداً .
سنكون نحن في الجهة الاخرى على احتراس .

وخيم الظلام ، وطرزت صفحة السماء نجوم ناعمة بيضاء
ونقت الضفادع في مستنقع قريب . وحركت الانسام رؤوس
الاشجار . وراحت من جوانب القرية تسمع أصوات رجال وقعقة
سلاح . ووقع أقدام رائحة غادية . لا بأس . ان المكان ليس
موحشاً الى حد بعيد .

وراح الرجل بين أبويه ، بين قبريها ، يستنبت مشاعره
ويدغدغها وينمها . إن ذلك شيء جديد بالنسبة إليه . هذا بيت
أبوي ، هنا يسكنان ، هنا وطنها في هذه الأرض . ومد يده
الى القبر : تراب .. تراب خشن . وغرس أصابعه في القبر
فلذعته شوكة حادة . واستخرج قبضة من التراب وراح يعصرها
عصراً شديداً حتى دميت أنامله ، هل لهذا التراب رائحة ؟
وغرس أنفه في قبضة التراب . ليست له رائحة معينة ، غير أن

فيه حياة .. حياة أناس ماتوا ، أعزاء عليه . حياة غريبة ، لا تشبه
أي حياة من الحيوانات . غير أنها حياة ، كحياة الانسان . لقد بدأ يشعر
بها ويمحسها بل يعيشها بأعمق جوارح كيانه كله .

يجب أن يستعمل السلاح . وأرجع مغلاق البندقية ، وراح
يتفحصه . إنها مملئة ، تبسم ابتسامة صفراء . يكفي أن يضغط
الزناد لينطلق الرصاص الاصفر . إنه لم يحارب في حياته ، غير
أنه الآن مكلف بالذود عن شيء . سيدافع عن قبري والديه ..
عن الارض التي تضمها . عن الأرض التي عاش فيها أبواه وسيعيش
هو نفسه عليها .

ورفع عينيه ونظر حوله . هل أصابه دوار ؟ إن القبور
تتحرك . يبدو أنها تتقدم أو تتأخر ! وهذه الشواهد ، إنها
تبرز شيئاً فشيئاً . كأنما هي جنود يثبتون من الخنادق استعداداً
للهجوم . وأصاخ السمع .. ما هذا الدوي الهائل ؟.

لابأس ، سيضغط الزناد عند أول حركة . وبعد فليحدث
ما يحدث . لن يدع أحداً يقترب على أية حال . إن عنده جناداً
مملوءاً وانه ليعرف كيف يضغط الزناد .

هاهي الضفادع تثرثر بصخب . أي سعادة تمرح بينها ؟ هل
تحس هذه الحيوانات بعاطفة من العواطف ، عاطفة الوطن مثلاً ؟ .
ماذا يكون شعورها لو أخرجت من مستنقعها وألقيت في صحراء
من الصحارى أو في قفر من القفار ؟ . وهذه الأشجار السامقة انها

تهز رؤوسها بنشوة ، فهي تنشب أظفارها في الارض . . . في أرضها ولن تقوى حتى فؤوس الخطابين على تحطيمها . . لن يؤثر فيها الرصاص أو شظايا القنابل . لقد تذكر أنه كسر ذات يوم غصناً من أغصان الكرمه فراحت تبكي بدموع غزيرة كدمعة الانسان . والتفت فجأة الى الخلف . من هذا الذي ينظر إليه بهاتين العينين الحادتين البراقتين دون ارتعاشة جفن ؟ وحبس الرجل أنفاسه بل توقف نبضه وأحس شيئاً فشيئاً أن شعر رأسه ينتصب . ونسي أن يضغط على الزناد ، بل نسي نفسه .

.. م .. من هذا ؟ ..

وارتفعت العينان البراقتان وسمع تصفيق جناحين كقهقهة ساخرة شامتة . يالله . . كاد يموت . لو كان هذا عدواً لخسر كل شيء . يجب أن يتعلم رباطة الجأش . . . يجب أن يكون شجاعاً كهؤلاء الناس الذين مر بهم . . . لقد بدواله لأول وهلة انهم فلاحون عاديون لا يعرفون غير زراعة الأرض ، والنوم في الشمس .

غير أنه اس ، حين تفحص عيونهم ، أشياء مخيفة . هل هي قوة العزيمة ؟ أم الايمان بشيء أخطر من الموت ؟ إن في عيونهم نيراناً أشد مضاء من أسلحتهم . فهم يحملون أدوات الموت كما يحملون فؤوس القطع ومحاريث الفلاحة . لا بد أن لكل منهم

شيئاً يدافع عنه .. أرضاً ، بيتاً ، شجرة ، قبراً . . . أو ذكرى
من الذكريات .

وعاد من جديد الى قبريه ، وتحسسها بيديه ، وعانقها . هنا
يسكن أبواه . هذا ما تبقى لهما بعد طول الكدح والسنين . غير
أنه شيء . . . ثمين على كل حال . لعلها يحادثانه الآن وينظران
إليه ، دون أن يفهم أو يعي ما يقولان . وتذكر أنه سمع يوماً
أن الأموات يتكلمون وينظرون كما لا ينظر الحي ويتكلم .
وانقضت ساعة تفتها ساعات طويلة . النجوم في السماء تتغامز
بنشوة . والقبور تتحرك ببطء ثم تقف ، والشواهد تنبت شيئاً
فشيئاً . والضفادع يزداد ضجيجها والاشجار تخشخش أوراقها . ومن
بعيد هممة رجال غامضة . وكل شيء هادئ .

★ ★ ★

وفي مساء اليوم التالي تلقى متجر المنترب محمد الجاجة في
في البرازيل هذه البرقية :
« بيعوا كل شيء وأرسلوا المال الى العنوان التالي : تل
الزيوان ، يافا ، فلسطين » .

يا أبنائي

اصطف ما تبقى من الفئة بين البراكتين المهجورتين . كان الجو غائماً بعض الشيء والأرض مشبعة بالرطوبة ، والحرارة خانقة رغم أن الساعة لم تتجاوز الخامسة صباحاً . وقد يعجب الانسان لصفات الجو المتناقضة هذه ، غير أن عجيبة يزول عندما يعرف أن المكان ينخفض عن سطح البحر مائة وعشرات أخرى من الأمتار أو بصورة أقرب ، يقع خلف تل مرتفع اسمه ناقص ٩٨ ، وبالتحديد يقع المكان في حدود فلسطين .

وقد عاد أفراد ما تبقى من الفئة الأولى - وهي إحدى فئات بعض سرايا الاسناد - من الخطوط الأمامية فجر اليوم ليحصلوا على قسط من الراحة بعد معركة دامت عدة أيام لم يذق أفرادها طعم النوم خلالها .

وكان المكان الآن الذكر يبعد عن الخطوط الأمامية عدة كيلو مترات قطعوها سيراً على الاقدام ، لتعذر سير الآليات في الليل مما جعلهم ينتظرون اللحظة المناسبة لتساقطوا على الأرض

اعياء ويستغرقوا في نوم عميق .. النوم ، ذلك الأمل الذي كان في الآونة الأخيرة - بالنسبة اليهم - جزءاً من أحلام اليقظة وفي الحقيقة كانوا يحملون بالنصر لكي يناموا ولا شيء غير ذلك ، لأن الطعام كان متوفراً بشكل لم يكن بالحسبان .

كانوا أحد عشر جندياً ورقياً أول وعريفين و .. آمر الفئدة أيضاً . وهذا الأخير وهو ضابط برتبة ملازم ثان - بشر بالترقيع الى رتبة أعلى منذ يومين - كان يجب ان لا يكون معهم ، منذ ظهر أمس ، غير أنه رفض أن يسبقهم على نقالة أسوة ببقية الجرحى ، كما رفض أن يمتطي أحد بغال الذخيرة ، بل أصر على أن يرافق من تبقى من فئته حتى يصل الى مكان الراحة مضحياً بكل شيء .. بدمه الذي ينزف من قدمه الجريحة ..

وكان الملازم قد أصيب بشظية قنبلة يدوية سقطت في خندقه ظهر الامس واخترقت نخذه اليمنى عندما حاول اليهود القيام بهجوم معاكس لاسترداد مركز البوليس في مدخل صمخ ولولا هذه القنبلة لرجع أفراد الفئدة أكثر عدداً بعض الشيء بزيادة واحد أو اثنين على الأكثر ، استشهد أحدهم وأصيب الثاني اصابة خطيرة ..

وبما أن الملازم آمر الفئدة كان يعلم أن فئته ستعود للاستراحة بعد منتصف الليل ، فقد آثر البقاء حتى يعود معها الى الخطوط

الخلفية ليستمتع أفرادها ببعض الراحة والنوم ، بعد أن لف ساقه بضادة الاحتياطي وألبسها كاسية الساق ليحد من سرعة النزيف. ولكن يبدو أن الجرح كان يستحق عناية أكثر ، لأن الدم المنبثق من الجرح خرق الشاش والقطن وكاسية الساق ، ثم راح ينبع بغزارة فامتلاً حداؤه حتى الكعب ، وصارت خطواته تحدث صريراً كأنما هي تفوص في وحل رخو مما جعله يتخذ اجراءات أخرى لاتقل عن سابقتها استهتاراً بالجرح ، حتى أضحت ساقه بعد أن ألبسها كاسية ساق أخرى وشالاً من القطن وقيصاً عتيقاً له ، أضحت كأنها جذع شجرة زيتون ضخمة ومزمنة. لاشك في أن هذا التعبير فاشل ، شجرة زيتون ضخمة ومزمنة . ان الشجرة لاتتألم وهذا هو الفرق . . فقد كانت الحياة تفارقه قطرة اثر قطرة . . كانت الحياة تنتزع من قدمه انتزاعاً وتسل من أطراف أصابعه بهدوء حتى راح يشعر بها وهي تبخر دون أن يستطيع عمل شيء حيالها .

كان الملازم لا يزال يقف جانباً ينتظر انتظام الصف ليقول لأفراد الفئة : يا أبنائي - وقد يقول شيئاً آخر بهذه المناسبة ، غير أن الرغبة في النوم وبعض عوامل أخرى جعلته يحس بأنه لم يعد يستطيع أن يقول شيئاً حتى ولا « يا أبنائي » .
أين هم أبنائه ؟. خمسة وأربعون رجلاً أين هم ؟ . . هل

هذه فئته؟! خمسة عشر رجلاً فقط .. كان يتألم .. ولكن هذه الكلمة « الألم » لاتعبر عن شيء .. لقد كان يعيش الألم ، والألم يعيش فيه .. الألم بجميع أنواعه . كان يقول ياأبنائي انكم أسرة واحدة .. أسرتي أنا .. أنا ربيتكم .. وهذه هي أسرتي أصبحت الثلث فقط .

عشرون جريحاً وعشرة آخرون ، ثلاثة سقطوا بين القمح ، واحد في رأس الجسر ، علي أحمد الحمد .. كان بطلاً ، سهل لرفاقه العبور . ألقى في روع اليهود حراس الجسر أنه على رأس لواء كامل .. فروا عندما تبعهم وفي صدره رشة كاملة من الرصاص .. كلهم أبطال .. أبطال حقيقيون ، إنها أسرة طيبة . وحامد الدرويش ، لا ، انه لم يميت .. ألم يقل دعوني هنا بين القمح واذهبوا .. سأعيش .. كان فلاحاً يحب القمح لذا لم يشعر بالموت وهو بين السنابل ، كان يتخيل بأنه سنبله .. لقد حفر الارض بيديه ودفن وجهه فيها .. إنه سنبله . سينبت من جديد . . وفاضل الفلاح ، أنا ميكانيكي . . كان يصرخ وهو ينظف الرشاش الملتهب : أنا ميكانيكي سأرغم الرشاش على العمل . ذخيرة ياملقم ذخيرة من شان الله ، لقد احترقت يداه وفاحت رائحة شوائها بين حضيرة الرشاش ، ووسط المعركة ضحك أحدهم صائحاً : لحم مشوي يا شباب . . لقد سقط وهو يحمل الرشاش

مع منصبه ويقفز به كأنما هو يحمل قشة صغيرة .. كان حضيرة
وحده .. ان الشجعان لا يموتون .. صحيح لم يمت .. لا لقدمات ..
ورفع الملازم يده الى جبهته ، لقد أصابني الدوار .. وتطلع
الى الحيز الذي كانت تشغله فئته قبل أن تتقدم لتحتل المستعمرات ..
وصرخ الرقيب الأول - انه عصا الملازم - كان يقول ذلك
ولم يكن كاذباً فهو يشبه العصا الى حد كبير . كان طويلاً
ونحيلاً ، له وجه ضفدع ، غائر الجبهة جاحظ العينين ، ولعل الصفة
الاخيرة لازمته منذ أدمن على الصراخ .. يميناً .. ترا ..
صف .. لا يزال الرقيب الاول ينشد الانضباط حتى في أحلك
الاوقات ، وينبض عرق ازرق في عنقه فهو يكاد ينفجر من
الغضب . ارفع بارودتك يا .. وابتلع الكلمة ..

وتقدم الملازم من الصف يتكئ على عود معكوف الرأس ،
يجر وراءه جذعه الدامي . لقد قصرت قامته المديدة بعض
الشيء وأصبح مائلاً قليلاً الى اليسار غير أنه مازال محافظاً على
هيئته العسكرية ولا شك أن ذلك كلفه الكثير من الجهد . .
جمدت امارات الطيبة والعزم على وجهه وتراكم فوقها ألم مرير .

نظر الى أفراد فئته وحاول أن يتقدم ثم وقف يتأرجح
ورفع يده في وجه الرقيب الاول الذي هب لنجدته .. ولم
ينبس بحرف واحد .. ثم وقف يتصبب من وجهه عرق غزير ..

لقد كسبتم المعركة أتم ورفاقكم .. لا .. يجب أن أقول
شيئاً آخر .. كلمة أبلغ .. اني أتألم .. لا لن أقول ذلك ..
ضعف .. لقد علمتهم القوة .. الضعف كلمة لا يعرفونها .. أنا
غير ضعيف .. ان كبريائي ..

كان الجنود يقفون كالأصنام التي ترتكز على قواعد غير
ثابتة ، خيل إليه في بادئ الأمر أن عينيه تخدعانه . هذه هي
الحقيقة انهم متعبون ولكن .. لماذا لا أتكلم .. يجب أن ينصرفوا ..
كانت قياقتهم ، بنظر الرقيب الاول ، مخجلة وخوذهم لا تزال
ملطخة بالوحل ، راحوا ينظرون اليه ، يحدقون النظر الى وجهه ،
الى عينيه ، خيل إليه أنه سيسقط قبل أن يقول شيئاً ذا أهمية
بالغة . ضاعت آمالهم بالنوم والراحة ، لم يعد أحد يفكر في التعب .
ضموا بنادقهم الى سيقانهم العارية بصورة أكثر حزمًا ، بدأت
قاماتهم تستقيم شيئاً فشيئاً . راحت تقلصات وجوههم تنفرج .
وزعوا أثقالهم على القدمين بالتساوي ، بدأت رؤوس أقدامهم
تتحرك . تنفسوا بارتياح . لقد تعلموا أن يستريحوا لتوجيه
ضابطهم فهو يحدثهم كآب .

وظل الملازم صامتاً ، جامداً ، كأنما غرس في الارض ، ينظر
في الفراغ المتبقي بين البراكتين . كانت فئته قبل المعركة تأخذ
المسافة كلها . انه الآن لا يتطلع الى أحد . ربما يتخيل الباقي فيما

لو عادوا جميعاً .. فاضل وحامد ، وعلي أحمد و .. ولكن لماذا
يعودون؟ . ألم يؤثروا البقاء في الارض التي يحتلونها؟ . لقد
احتل علي أحمد الجسر وبقى فيه ، وفاضل لا يزال مع رشاشه ،
وحامد مع سنابله .. ونحن عدنا وحدنا سالمين .

وصحبا الملازم .. ياإلهي هل يمكن ذلك؟! . هل نمت وأنا
واقف؟ لا يمكن ذلك .. وأحسن بأنه يفوص في الارض ،
حاول أن يتقدم فلم يستطع ، وحرك قدمه السليمة . لا . . إنني
مسمر في الارض ..

وخيل إليه أنه استغرق في النوم مدة طويلة والجنود
ينتظرون ..

وتوقفت الى جانب الطريق سيارة ، رسم عليها هلال أحمر ،
هبط منها جنديان يحملان نقالة .. ولم يلتفت الملازم .. بل
أطرق الى الارض قليلا وحرك لسانه في حلقه يجرض بريقه
بصعوبة فائقة . ثم تتم بصوت مبجوح ، لم يقل شيئا غير كلمة
واحدة: « ياأبنائي » .

أكسبها كل مافي نفسه من حب وحياة وألم .. .

المسافر

لبثت اثنتي عشرة ساعة انتظر القطار . وليس ذلك غريباً
في محطة القامشلي حيث تبدأ الحدود السورية التركية . وحين
يقول لك مأمور المحطة إن القطار سيصل في الساعة الثامنة
فمعناه أنه قد يصل ما بين الساعة الثامنة والعشرين وما عليك إلا
أن تنتظر هذه الساعات الطوال . ولا يمكنك أن تنادر المحطة
حتى يوم القيامة ، لأن القطار يمكن أن يصل في كل لحظة .
كانت أمتعتي تتكون من حقيبة كبيرة وفرشة وسلتين ..

ولم يكن ثمَّ شيء يضايقي في بادئ الأمر غير ربطة العنق
التي كنت أحاول أن أبدو بها وجهاً بعض الشيء في عيون
العرب والفلاحين الذاهب لتعليمهم . . اثنتا عشرة ساعة لست
أسفا عليها ، لأن وراءها قصة حزينة قد جرت . كنت خلال
هذا الرتل الطويل من الساعات أنتقل بين غرفة الانتظار
ومستودع البضائع ومن أكياس الحنطة الى الرصيف ومن غرفة
المأمور الى المقهى . . . هذا المقهى الذي شهد عقد صداقات لم

تلبث أن حلت حين كان يختفي طرفها الآخر . . ماذا فعلت خلال هذه الساعات الطوال ؟ لقد وزنت نفسي على قبان البضائع خمس مرات وفي كل مرة كانت النتيجة مخالفة لسابقتها ، وطاردني شخص زعم أنه يعرفني فسلبني شطيرة وكأساً من الشاي ثم هرب . ثم تعرفت على موظف ادعى أنه مسافر الى دمشق وأنه يعرف والدي وسرد لي كثيراً من مغامراته واستدان مني ليرة ثم اختفى . . وكنت أتفقـد أمتعتي فألفيها كاملة وإن كنت أجدها قد سارت خطوة أو خطوتين وتفرقت تم تجمعت وقد أزلتها مرتين من عربة البضائع حين ادعى الجمال انها لأحد المسافرين الذي أوصاه بالمحافظة عليها . وحوالي العصر قدم الى المحطة فلاح عجوز يحمل على كتفه زوجته المريضة ، حيث سجاها على الرصيف ، وشرع يهيبها لها وسادة من الاحجار . تعرفت بالمحطة على كل شيء حتى صرت من أهلها ، وحتى الكلب الهزيل الذي كان يتنقل مع الظل جعل يتابعني بعينه الجراوين . . ولعله كان يظن أني صديق قديم . تعرفت على الفلاح العجوز وعلى زوجته التي كان يروعني اصفرار عينها الجاحظتين . وتوطدت بيننا أواصر الصداقة حين أنبأني أننا مسافرون الى قرية واحدة ، وتطلعت إليّ زوجته قائلة : « سأرسل اليك ابني لتعلمه القراءة » وأحببتي هذه كثيراً وابتسمت لي وهي تقدم لي برتقالة كبيرة ..

وظلت تراقبني حتى أطبقت جفنيها ونامت . . وفيما كنت أتفقد
أمتعتي في العتمة أحسست بيد خشنة تحط على كتفي وصوتاً متلجلجاً
مرعباً يهمس في أذني :

- لقد ماتت ..

- من هي ؟

- ماتت زوجتي ؟

لابأس منذ دقائق كانت امرأة تبسم لي وهي تقدم لي برتقالة
بيدها ثم حركتني عن ابنها وقالت لي إن بيتها الى جانب المدرسة
وإنني سأزورها لتقدم لي بيضاً ولبناً . . منذ دقائق كانت هذه
المرأة تتكلم والآن يقول لي : ماتت . . ماتت . . وماذا يهمني
ان ماتت ؟ هأنذا في محطة مظلمة بعيدة جداً عن أهلي وعن
المكان الذي ترعرعت فيه . . وأمامي شيخ عجوز لا أعرفه وبعد
انتظار ساعات طوال . . أجد الى جانبي امرأة ميتة وكانت حية
منذ أمد قريب جداً .

ترى من أنا ؟ أنا ذلك الشاب الذي سافر منذ ثلاثة أيام من
بيته تودعه أمه بقبلاتها ودموعها ؟ كان الشيخ يقف أمامي وهو
يرتجف كأنه يستمد مني المعونة :

- ماذا نفعل الآن ؟ ستساعدني أليس كذلك ؟

بالسذاجة هذا الشيخ ! هل يظنني ضابطاً في الجيش ؟ أم

يظنني بطلا من أبطال الاساطير الذين لا تروعهم امرأة تموت الى
جانبهم ؟ لعن الله هذه الربطة لقد جعلتني رجلاً حقاً . وامتدت
يدي الى عنقي ونزعتها ثم دسستها في جيبى . إن عاد هذا الرجل
فسأبكي أمامه . . إني خائف أكثر منه . . ولكن ماذا لو حملني
على مساعدته ؟ سوف استغيث . . سوف أهرب . . كان يجب
أن يعرف من أنا حين لم أجرؤ على السؤال والاجابة .

وقدم القطار . . قدم يحدق حواليه بعيون خائبة حمراء ،
أضناها السهر والانتظار . قدم يجر وراءه رتلاً طويلاً من
العربات الثقيلة ، مردداً أنفاسه المحروقة غيضاً وغضباً ، أما عربة
المسافرين الوحيدة فكانت مكتظة معتمة .

وألقى الجمال بأمعتي من النافذة فسقطت في المرر . . لابس
سنصل في وقت ما الى القرية أنا والشيخ والمرأة الميتة . . سنصل
نحن الثلاثة بموكب حافل . : والآن يجب أن أفتش عن مكان
لأمعتي . وانحيت أبحث تحت المقاعد بين أقدم النائمين وفوق
الرفوف حيث أنفاسهم تلفح وجهي وشخيرهم يطغى على شخير
القاطرة . وفي كل خطوة أخطوها كنت أتعثر بقدم . فتنهال علي
الشتائم بلغات عديدة لا أفهمها . . وكانت لاتغيظني ، كنت أتحرك
كالآلة . . كالأسير . . إن شيئاً طغى على حواسي جميعاً . .
وسفحت امرأة على وجهي بصقة كبيرة ثم غطت في نومها من

جديد . . ولم يضايقني قشر البيض والموز والمياه المراقبة على الارض كما ضايقني وجود أمتعتي في منتصف الممر .

وبكى طفل فجعت أمه في وجهه كالبقرة . . ثم نامت ولكنه لم يسكت فهزته . . ثم عصرته . . فاحتبس صوته وأخذ يئن فصاحت به غاضبة ثم أفلتت منها صيحة مرعبة . . كنت أنا أتحرك وأسمع ولكن كالنائم . . وغير بعض المسافرين وضعهم ، ثم عادوا للنوم وشخروا من جديد . ولكن ما إن بدأ القطار يتحرك حتى كانت العربة قد انقلبت الى مايشبه السفينة الفارقة . كانت الاصوات تتردد ، متنافرة متباينة ، من خليط من لغات حية وميتة . . وبين الجميع كان صوت الفلاح الشيخ بصيح : « لاتخافوا . . مسكينة ! . مريضة ! . انها بعيدة عنكم . . اسكتوا من شأن الله سيسمعونكم » لأدري من أين أتى الفلاح بزوجه الميتة ؟ غير أنني أدركت أن أول من أحس بها هو وجه الطفل النائم حين اصطدمت به قدمها الباردة . ولو أدرك الطفل ما هذا الذي لطمه على وجهه لآثر الصمت . . وأراد رجل أن يعود الى مكانه فتعثر بأمتعتي ثم انكفأ على وجهه وحاول النهوض . فمست يده وجه الميتة فعوى رعباً وهلماً . . وانطفأت الاصوات وسكت كل شيء . ماعدا عجلات القطار فكانت تردد مسرعة :
ميتة . . ميتة . . ميتة .

وكانت تدور وتدور مولية هاربة كأن شيطاناً يهددها بالفناء ،
كأنها تسرع لتتخلص من الميتة التي تحملها وومض نور من آخر العربة
ثم اشتعل عود ثقاب ونفضت عيناى العربة : كان المسافرون جميعهم
قد جلسوا منتصبين كجثث محنطة . وانظفاً النور ثم أخذت لفافة
تحترق وتنتشر حولها دخاناً ثقيلاً . واشتعلت لفافات آخر شرعت
ترتفع وتنخفض كأرواح تائهة ومن فوقها عيون مملقة فيما
حولها ، يشع منها الذعر والرهبة ، لقد استيقظ المسافرون جميعهم
ماعدا واحدة فقد بقيت ملقاة في الممر جانب فرشتي التي سأنام
عليها .. واطل من باب العربة فانوس صغير تبعه هبة نائرة من
الهواء البارد ثم أغلق الباب . فتوقف قاطع التذاكر عند المقعد
الاول ، وامتدت اليه الأيدي بالبطاقات فبدأ مقصه يقضمها
كفأرشره . وسمعت صوت امرأة تقول له شيئاً . . فلم يجب
ولعله لم يفهمها وتابع سيره حتى وصل الى منتصف الطريق .
- ما هذا ؟

وأدنى فانوسه من الأرض .

- مريضة ياسيدي .. مريضة لم نجد لها مكاناً !

- اجلسها جيداً .. لقد سدت الطريق .. أين تذكرتها ؟

وناوله الشيخ بطاقتين قضمها بمقصه وأراد أن يخطو من

فوقها فتعثر بقدمها الممدودة

- اسحبي رجلك ..

وتوقف لحظة ثم استدار الى الخلف وسلط نور فانوسه الى
وجهها وقال بهدوء :

- انها ميتة !

- لا والله ياسيدي .. لا والله مريضة .. فقط.

وحتيل إلي أن الشيخ يبكي .. يا الله سوف يقذف بها من
النافذة . ومد الرجل يده الى صدرها وشرع يهزها بعنف ثم
نظر الى وجهها وهز رأسه .

- انك تكذب .. هذه امرأة ميتة مستنزل انت واياها الآن .

وتابع سيره ولم يتردد الشيخ اذ سرعان ماتبعه واختلى واياه
في الظلام .

ثم عاد بحكم وضع محفظته ..

ورجع بعد برهة قاطع التذاكر بصحبه المفتش . ودار هذا
على المسافرين يتفحص بطاقتهم ثم توقف عند المرأة الميتة :

- ما هذا ؟

- امرأة مريضة ياسيدي.

وأراد المفتش ان يتوقف فسبقه مرؤوسه بالفانوس . وتبي

الظلام والصمت وحدهما يتعاقبان وسط العربة المتمايلة .

وتوقف القطار وزل المسافرون الثلاثة .. وتطلعت حولي

ترى أين القرية ؟ لا أرى حولي غير بناء قاتم وسط الفراغ
والصمت والظلام .

واقتربت من مأمور المحطة وكنت أرتجف من البرد :

- أين القرية ؟

فأجابني بعربية ركيكة :

- القرية بعيدة .. من أنت ؟

- أنا معلم القرية.

فهز كتفيه ومضى الى غرفته وهو يسقط رأسه في جسده ..
هأنذا أقف في مكانٍ ما من هذا العالم .. مكانٍ بعيدٍ
بعيدٍ جداً .. لم تطأه قدم احد من أجدادي السابقين ، تلفني وحشة
الليل ويصفر في أذني الهواء الذي يعزف على أسلاك الهاتف
موسيقى موحشة مرعبة .. وها هي ذي الى جانبي امرأة ميتة ،
ملقاة على الرصيف كصرة مفكوكة ضاع صاحبها .

لقد تركها زوجها ليجث عن دابة ، ربما تركها لي لأحرسها
ونظرت اليها .. أحقاً اني اقف الى جانب امرأة ميتة ؟ نعم هاهي
الريح تداعب ثيابها ، وتكشف عن ساقها ، وتبعثر شعرها .
شكراً على برتقالتك ايها الميتة .. لقد أكلتها ، وشعرت بالغثيان
فاندفعت الى مأمور المحطة . ترى ما هذا الذي يتكلم تك .. تك ..
تك .؟ انها الطابعة اللاسلكية ، لا بأس ان عند الرجل مايؤنسه .

وقرعت الباب .. قرعته مرتين فسمعت غمغمة .. وفتح الباب
وعاد الرجل الى فراشه دون أي سؤال أو جواب .. ماذا
فعلت لك ايتها العواصف الثائرة ؟ لماذا تتبعيني الى هنا ؟ لماذا
تحاولين خلع الباب ؟ أقسم لك أنني بريء من دمها ، لست أنا
الذي قتلتها ، أخرج من ثيابي أيها البرد القارس ، انني ارتجف ..
لست أنا ، اني معلم .. سأعلم ولدها .. سوف ازورها لتطعمني
بيضاً ولبناً .. كلام تمت ، اقسم لك اني بريء .. بريء .. بريء .
وأفقت .. كان الرجل يدخل الى جانبي وسمعت في الخارج
اصواتاً ونحيباً يتسللان مع نور الفجر . . . وسرنا الى القرية . .
كانت الميتة ملقاة « كالخرج » فوق ظهر الحصان ورجلاها
تأرجحان على الناحية اليمنى وظهرها الطويل يعمل في خاصرة
الحصان كالمهاز .. وهذا يسرع ويسرع ونحن نعدو وراءه . .
وسبقنا حصان الميتة ، ثم اختفى وراء خط منحدر آخر . .
ونظرت الى بعيد .

كان الدخان يتصاعد من افران القرية ، والثيران تسير الى
الحقول ولا شيء يعكر الصمت غير صوت حدوات الحصان الهارب .

شجرة لبط

يعاودني الحنين الى تلك الشجرة ، فاقطع مسافات شاسعة كي اصل اليها . هذه الشجرة مثلنا نبتت من التراب وارتفعت برأسها الى الله فعلمتنا كيف نحب الله والتراب .

إنها تشمخ في أعالي تل العزيزات ، جبارة ، عاقية ، منتصبه دائما ، صامته لا تنطق ، ولكنها تخرج أحيانا اختلاجات معبرة عندما تصفر الرياح من حولها وتدور من خلال اغصانها العارية ثم تنفلت هاربة الى الشرق . فلا تخشخش فيها ورقة واحدة . في يوم ما تساقطت اوراقها ، ورقةً ورقةً ، كالدموع عندما شوّهت الحرب قوامها ، فنقب الرصاص صدرها وشقق لحاءها ، أما جذورها فبقيت متشبثة بالارض تريد ان تحتفظ بالتراب الذي تحيا منه وتعيش فيه ، والشيء الوحيد الذي يحزنها انها لاتستطيع أن تظلمه .. وكان لايزال يوجد في أعلى قممها بضع وريقات مثقوبة تطير حولها العصافير ، ثم تغادرها خائبة الى شجرة اخرى لتبني عشها الأخضر .. يمر الجنود من حولها كل صباح يحبون

بأحذيتهم الثقيلة وبأيديهم قصعات الطعام وينظرون اليها نظرات
عابرة ، ثم يتابعون سيرهم . يعتبرها بعضهم محارباً عظيماً خاض
معارك طويلة خرج منها رافع الرأس ، ونقشت على صدره أوسمة
النصر وبعضهم الآخر يتخاياها أما عجوزاً فقدت أطفالها فرفعت
أذرعها اليابسة الى السماء .. هنالك جنود حفروا اسماءهم على قشرها
ثم عادوا يقرأون ذكرياتهم بأكام فارغة ..

واتكأ عليها آخرون بأرجلهم ثم رجعوا يزورونها على عكاز .
بدأت الحرب وتوقفت ، واستشهد جنود ورجع الباقون بأوسمتهم ،
وظلت هذه الشجرة تحرس الحدود عالية راسخة ، تدس أنفها
بين النجوم ، تهزأ بالارزاء التي لم تستطع أن تخدش جذورها
وقد اقسمت ان تحافظ على الارض التي نبتت فيها وعاشت لها ..
ويتتابع الليل والنهار والفصول الاربعة وشجرة البطم حية خالدة
لابؤنس وحشتها غير ذكريات قريبة وشبان صغار يقرعون
أرضها كل يوم بأحذيتهم المسلحة بالمسامير ..

منذ أربع سنوات ، والى يمين هذه الشجرة - قبل أن
تشيخ - اصطفت مفرزة الدفاع على تل العزيزات .. كنت اقف
شارداً مستنداً الى الشجرة عندما سمعت احدهم يقول لرفيقه وكأنه
يعني حديثاً آخر :

- الهواء حار خانق سينشط الناموس هذه الليلة .

وكان آخرون يتحدثون بأصوات خافتة . والرقباء يطوفون
برشيشاتهم حول حضائرهم يجرون التفقد .. وطرق سمعي اسم جندي
وفد جديداً الى المفرزة ينادى مرتين فلا يجيب ، وهزني اسمه
وجعلني اصغي وتمنيت لو ابحت عنه .. كانت المفرزة تضم جنوداً
من جميع الاعمار ولكن هذا الجندي بالذات كان يشعرني أنني
لا أزال طفلاً صغيراً . ماذا أقول لهم الآن ؟ لن أقول شيئاً ،
سأحدثهم عن انفسهم أثناء التفتيش فحسب .. ولكن عن أي شيء
أفتش ؟ أعن زر مقطوع أم عن حذاء وسخ ؟ .. ان الاشياء
لاتهمنا هذه الليلة مادامت جيوب الرصاص منتفخة والصدور تتوقد
حماسة وشجرة البطم ورائنا والعلم العربي يرفرف صاعداً ، تمد
شجرة البطم اجنحتها اليه .. سأقول لهم :

- اسمعوا ايها الاصدقاء ، سنحارب معاً في صف واحد ،
رئيساً ومرؤوساً ، نسكن هذه البيوت الطويلة التي حفرناها في
ارضنا ، ان سعادتكم جميعاً هي سعادتي مادمتم انتم سواعدي
وحواسي ، وهذه شجرة البطم من ورائنا جميعاً تمدنا بالثبات
والرسوخ في الارض التي نبتنا فيها ..

ولكن لا .. أريد ان أتحدث عن شيء جديد . . ماذا
اقول ؟ .. كانت بنادقهم مضمومة الى جوانبهم كقطع من اكبادهم
وعيونهم تومض بالافكار التي يضررونها .. ووقفت امام العريف

حسين وكانت السنون قد منحتة رتبة على جبينه وخديه قبل ان
يلتق رتبته على ساعده .. فيم تفكر ايها العريف؟

- لا شيء ياسيدي .

وقال لي الوكيل من الخلف :

- لقد صار أباً ياسيدي .

- صحيح .. ما اسمه ؟ . سمه شبلا

- .. لا أدري بعد ياسيدي ان كان ذكراً أم أثنى ..

فقد دعيت الى الصف قبل أن أتم قراءة الرسالة ..

لابأس ، هناك وليد ينام في سريره لا يحلم بشيء وهنا أبوه
يحلم به ويتساءل عن لون عينيه ، وقد يعود يوماً هذا الأب
ليضم ابنه الى صدره وقد لا يعود ، فينشأ الطفل ويصير رجلاً
يتحدث عن أبيه .. جميل أن يكون للانسان ابن على كل حال
لقد قالت لي أمي ذات يوم : يجب أن تتزوج يا ولدي .. اقتصد
قليلاً . وسألني رغبتها لو تحققت ثلاثة شروط صغيرة : الموافقة
والمال وأخيراً الزوجة .. وعلى كل ان لهذا الجندي الذي يقف
في الخلف رأياً في ذلك وتقدمت اليه .

- أين كنت يا ؟ ..

أجاب الوكيل من الخلف :

- لقد تأخر عن الاجتماع ..

لا أدري أكانت مصادفة عجيبة أم خطة مدبرة أن يجتمع
ابن ضابط وأب جندي في مفرزة واحدة . الأفضل ألا أفكر
في ذلك ، يجب أن أكلمه كرئيس وعليه أن يطيع . وبعد
ذلك سأخو إلى نفسي وسأحاسبها سواء أكنت مخطئاً أم مصيباً .
نظرت إلى عينيه وأنا أحبس في حنجرتي تأنيباً شديداً للهجة :

- عليك أن تحضر لمواجهة أمر السرية .

لم أستطع أن أقول غير ذلك سوى أن أنفقت من الصف
متجهاً نحو العريشة ، هائماً على وجهي كهان راح يثار . . وفيما كان
رأسي يصطدم بالسقف الواطئ سمعت صوت الوكيل يعطي إيعاز
إملاء السلاح . . انها تجربة قاسية كلما رفعت رأسي امامه شعرت
بالانحناء ، وكلما علا صوتي فوق صوته أحسست ببحة ، كان
يأمرني ان اذهب في الليل لألي له طلباً ، والآن أمره ان
يواجه أمر المفرزة ، ولكن ما بعزيني هو اننا نحارب معاً - الأب
والابن - وفي صف واحد . من العسير علي ان انسى هذه
الابتسامة التي كانت تعلو شفثيه . كنت اعرفه كجندي . .
كأب اما كمرؤوس . لا بأس . ودفعت رأسي بين كفي . . ومن
خلال اصابعي لمحت شبحاً يخني هامته ثم يدخل وعلى قيد ست
خطوات وقف والدي امامي وقفة استعداد .

- ينبغي ان يعلم الجميع اني أنا ابنك وأنتك انت والدي . .

- تمهل يا ولدي .. انها فكرة لم تنضج بعد .
لا .. بل يجب ان يعرفوا جميعاً .. لا تضحك هكذا ، من
المستحيل ان تدرك مشاعري .. اني اتعذب .
- أكاد أشك في أنك الشاب نفسه الذي كنت اعرفه .
ألم تمر بك ظروف قاسية بعد ؟ لم اذن هذه الثورة .. ؟ ترى
الا تدرك كم أنا فخور بك ؟ . أيجب علي أن أفسر لك ذلك ،
سوف تدرك كل شيء غداً . وما الفائدة من ان يعلم الجميع
أنك ولدي ..

- يمكنكني على الأقل أن اتخلص من هذه المشاعر التي تخنق
صدري .

- اسمع يا ولدي يا رسلان .. ياسيدي الملازم .. اني جندي
وانت ضابط ، هل تدرك ماسيحدث لو علم الآخرون غير ذلك ؟
سيقولون اني أبو الملازم رسلان وسيقولون انك ابن الجندي
فلان ، وسيصهروننا في بوتقة واحدة ..

وصمت والدي ووقفت أتطلع من كوة العريشة الى الجنود
وهم يزحفون الى كائنهم متفرقين في حضائر طويلة متسترين ينبضون
كسرايين الدماء التي تنبع في صدر الحياة .. لا ادري فيم كنت
افكر ، حسبي أن أخفي وجهي عن عيني والدي الحادثين اللتين
تكادان تخترقان رأسي لتعلما مايجول فيه ، وسمعت صوت احد
الجنود يقول لرفيقه :

- 'ترى هل لها عينان زرقاوان ؟.

- ولكن عيني سوداوان .. وعرفت انها يتكلمان عن الوليد .

- ألم نقل أن لأمها عيناً من زجاج ؟

وعرفت أنها يتكلمان عن الوليد ورن فوق الجميع صوت خشن مألوف:

- 'هس' ، بلا لغو خمس خطوات مسافة دون قرعة . .

ودلف الرئيس (نضال) الى العريشة بقامته المشوقة

وقال بخشونة :

- ماذا يفعل هذا الجندي هنا ؟ يمكنك ان تأمره بالانصراف.

والتفت الى والدي فلم أجده ..

- اسمع يا رسلان .. ان رفاقنا اخترقوا الجبهة من قطاعين

وهم يتقدمون باستمرار وفئات اليهود تتحطم على صخورنا اليابسة

وتذوب فقاعاتها . وهم ككل جسم اذا ماضط احد اطرافه

اندفع الطرف الآخر منه . اريد ان تكون هذه الليلة حاضر

البدية صافي الذهن ..

ثم اقترب قليلا وتفرس في وجهي :

- مابك هل يؤلمك رأسك .؟ اني لا أحب العيون الحمر .

وتمنطقت بمسدسي وهممت بالخروج فسألني :

- هل عينت راصداً أمامياً ؟

- رصاد الامس انفسهم

- نبئت ان هذا الجندي الكهل يحب السهر ، فعينه حتى
منتصف الليل .

وكان يشير الى والدي .

ووقفت فوق فوق صخرة عالية ابحت عن ذرة هواء . .
وزحف الصمت مع الليل وجثا على التلال المجاورة وغطيا السهول
والأودية . . وترجرج الشفق الاحمر قليلا فوق جبال الجليل
ثم حجبتة غيوم بيضاء واصبح البصر مها امتد لا يرى الى ابعد
من خمس خطوات دون ان يميز الحجر من الخوذة بل يخال
ان الحجارة تتحرك . .

في هذه اللحظات يتنضح المرء لسمع صوت نفسه ، ويظل
صدى حنجرتة يدوي طويلا حتى يسمع انين ناموسة جائعة فيتسلى
بانغامها الكثيبة حتى تهبط فوق وجهه فيرفع يده بقوة ثم يسحقها
وسواء أحس بدمائها اللزجة تلوث وجهه ام لم يحس فهو لا بد
سامع صوتها من جديد تتر فوق رأسه . وأخذ الوقت يزحف
بطيئاً ثقيلآ يجر وراءه حلك الظلام والصمت .

ورجعت الى العريشة فوجدت الرئيس يمزق بعض الاوراق

وسألني:

- كم تحمل من الخرطوش ؟

- خمسين طلقة .

- خذ خمسين أخرى ، تفقد خطوط الهاتف سأتصل بك
في الكمين الايمن . ابق هنا ريثما تأتيك اوامر جديدة . انزل
جنديين الى الوادي وزودهما بفشك الإشارة .

- سأفعل ذلك ياسيدي .

لصقت كعبي ببعضها ورفعت يدي ثم استدرت ففاجأني :

- من هذا الجندي الذي كان هنا ؟

ورن جرس الهاتف فتلقفه بسرعة ووضع على اذنه: ألو.. ألو..
نعم.. من؟ ألو.. وصمت قليلا ثم هز السماءة ونفخ فيها وقد اربدت
سحنته . وهزها مرة ثانية وصاح ألو . . ثم القى بها الى
الارض مهمهما :

- لقد قطع الخط ..

وتقدم خطوتين ثم رجع وجال بنظره وسط العريشة واطفاً
الشمعة . واتكأت جانب الرئيس الى الشجرة ، وقال لي بسبوم :
- هل احدثت بنفسك هذه الشجرة اثراً ؟

- أراك ياسيدي تشاركني التفكير فيها . قال : نعم انها

جندي عظيم (وحاول ان يعانقها ويهزها ..)

- انها راسخة كالطود جبدا لو سلمناها مدفعاً و ..

... الهاتف مرة ثانية . وعاد الرئيس بسرعة وسمعته

يصيح : انتظروا لاتطلقوا النار .

ان من مبادئ احتقار العدو والاستهتار به ان تدعه يتقدم اليك
وأنت مكتوف اليدين ثم على بعد خطوة واحدة تعالجه بلظمة
شديدة فان لم يميت من اللظمة مات من الخوف .

كانت رشاشاتنا مسلطة على الوادي الأيمن والسهل المنبسط
أمام التل . وكانت نيرانها متشابكة للدرجة يصعب فيها تسرب غلّة
ضائعة . شيء واحد يجعل أزندة الأسلحة تنحني الى الخلف
فتلعب الارض وتحصد ماعليها . هذا الشيء هو طلقة من الراصد
أو صيحة انذار . وكنت في كميني عينين ثاقبتين وأذنين
تستنطقان الحجارة الصماء . واقتربت من الرامي هامساً :
- كيف حال رشيشك ؟

- لقد نفذ صبره وصبري منذ عشر دقائق وأنا أسمع ارتطام
رؤوسهم بالاحجار .. اني أخشي ..
- ماذا ؟

- أخشي أن يكون الراصد .

وجأة نطق الراصد .. إذا انطلقت بندقيته خمس مرات متعاقبة
وتلا ذلك انفجار نيران بندقية رشاشة بعثت رصاصاتها المتساقطة
حولنا نوافير صغيرة من التراب وقطع الحجارة . وأزّ الرصاص
وصفر ، وراحت القذائف تمزق الارض غضباً وتصرخ في انطلاقها
صراخاً يبدد مكينة الليل والسماء .. وكأنا فوجيء العدو

بالشياطين تنبع من بين أقدامه فأخذ يترأكض ويدور حول نفسه بهياج شديد . وارتفعت أصوات صادرة آمرة ، مملوءة (بالشينات والميات والحاءات) ونكص اليهود مهرولين متلفتين كل ناحيه مقوقين كالاوز ، وانطرحوا متشبثين بالاحجار والرصاص يتواهب من حولهم كنفوسهم التي تتطير شعاعاً ، وارتجفت الارض وانطلقت قذيفة عدوة تصلي التل ناراً محسرجة ، وجبت رشيشاتنا أصواتها تستعد لصيحة جديدة . وكمن يخبط خبط عشواء أخذت قذائف المدفعية العدو تتساقط من ورائنا محدثة أصواتاً بجنونة وانقلب الليل الى جحيم . وفي هذه اللحظات لا يقاس الوقت بالدقائق بل بمقدار المفاجآت والحوادث .

- ما هذا الصياح ؟ ..

- انه الراصد مازال في الأمام ويأبى أن يتراجع .

- كيف ، هل جن ؟ ..

- كلا ولكنه جرح .

وتحت شجرة البطم كان ابي يستلقي في نقالة خشبية ، وقذائف العدو تتساقط باستمرار تظهر في نورها الأزرق خوذ الجنود راسخة كالابراج براقه كسنان الرماح ثم تنفجر كصيحة جريح يائس فتهتز شجرة البطم وتسقط منها بضع أوراق جافة .. ونهض ابي من النقالة يريد أن يلقى بنفسه من أعلى التل ..

- لماذا؟ لماذا أتيت الى هنا .. الأحمى كالأطفال؟ ..

- مهلاً يا أبى . انتظر قليلاً سنرجع الآن معاً .

- أراد الكلاب أن يفاجئوني .. ارفعوا ايديكم عن صدري

لست جريحاً أريد ماء فقط ..

وأخذ يزدرد ريقه كما يزدرد ورقة نشاف الماء .

- افتحوا الباب .. أخرجوني من هذه الغرفة المظلمة .. وسبح

وجهه فى عرق بارد ..

- أعطني المطرة ، انها هنا (وتمسك جنبه) آه .. أين هي ؟

سرت .. سرقوها ؟ ..

ووضعت فوهة المطرة بين شفتيه وأخذت أسكب الماء ..

ففتح عينيه وأخذ يتسم :

- والآن ماذا تريد منى ؟ لماذا لا تتركنى أذهب فى طريقي ؟

اتركنى أم على السلاح .. أين بندقيتى ؟ أرانى أحنث باليمين ..

وأغمض عينيه وأخذ يغمغم ..

- لقد أقسمت فى يوم ما ألا اموت إلا على السلاح ، وألا

أهجر ريفتى فى المعركة وأن أناضل حتى الرمق الاخير .. وأن ..

أين البندقية ؟

- هاهى خذ .

- دعها الآن كما أستريح .. هل تظننى جرحت ؟ (واستأنف

صلاته) وأقسمت أن احترم دين أجدادى أين جدى ؟ لقد شنقه

الاتراك وأين جدك؟ أعدمه الفرنسيون .. لقد ماتوا دون أن
يتركوا لنا سوى الأمل ، آمالهم جميعاً .. أين المطرة؟
وسكبت فوق وجهه الماء ، فتهند واطبق شفتيه .. وأخذ
ينظر الي ..

لقد مات جدك دون أن يطلب مني ان أبنى له قبراً من
رخام ، كان يريدني فقط ان أتم الرسالة التي بدأها . هأنذا لم
أمت .. ولن أموت مادمت انت ولدي، ستسلك الطريق نفسها .
ورفع يده وتحسس وجهي ..

دعني أسترح ولا تجعل لموتي ضجة . اننا نفقد شرف التضحية
عندما نعول فوق رؤوس شهدائنا دعنا نمت بصمت فذلك عمل خالد .
ورفع رأسه ومد يده الى الارض وغرس ساعده في التراب .
- انظر الى هذا التراب ، كنت اسكن فيه فسمعته يناديني
بصمت اتني ظامئ . اسقني قليلا من دمك لانبت لك شجرة
الحرية ..

وضم قبضته الى صدره واطبق جفنيه وغمغم : ايها الشجرة
خميني اليك انت التي لن تنامي يوماً على نقالة .
لاتزال شجرة البطم منتصبه صامته ، وتل العزيزات لم يفقد
سوى قبضه من تراب اطبق عليها والذي بأصابعه وظل يضمها
الى صدره للدايمي وروحه تصعد الى السماء .

نداء الوطن

امتدت اصابع طويلة ذات عقد بارزة الى صدر ابراهيم القابوني ، وفتحت شق القميص الازرق الذي يرتديه على اللحم وبعد ان تنفس قليلا من الهواء النقي غير المزوج بتراب الحقل أحس بأن قواه المتلاشية بدأت تعود اليه فخطا خطوتين ، وارتمى في أحضان شجرة الجوز العتيقة التي قال له أبوه ذات يوم بشأنها قبل أن يموت :

- انظر يا ولدي يا ابراهيم لا تقل اني تركتك وحيداً ، انها تحمل ثلاثة قناطير كل سنة فحافظ عليها .

كان ابراهيم فلاحا ترعرع في الارض وعاش منها واليها ، فقد استنشق غبارها منذ نعومة اظفاره ، واختلط لعابه بترابها عندما كان طفلاً ، وظلت هذه الارض تغذيه كما تغذي نباتاتها حتى جاوز سن الشباب واشرف على الشيخوخة .
وكان في هذا اليوم الحار من أيام آذار يزرع شتلات

الخضرة في حقله الصغير ويفصل بينها بواسطة أخاديد صغيرة ليعمل
على فتح الساقية التي تروي الشتلات عند الانتهاء من عملية الغرس .
وفي تلك اللحظة كان قرص الشمس الملتهب يتوسط كبد
السماء ، ويصوب سنان أشعته الواخزة عمودياً على الأرض ،
حتى ليكاد يحرق ما عليها ..

ولاك ابراهيم اللعاب المترب في فمه ، ثم مد يده الى ابريق
الماء الفخاري القابع الى جانبه ، وافرغ نصف محتوياته في جوفه
وما كاد يتلع ريقه الرطب حتى سمع صوتاً قريباً يناديه :
- قواك الله يا ابراهيم ..

فالتفت ناحية الصوت ليرى فارساً ملثماً ، تلتصق صفوف
الرصاص وأجندته حول صدره وخصره ، وقد احتضن بندقيته
القصيرة أمامه فعرف على التو أن مخاطبه هو حامد الطحان
المعروف بأبي الموت وقد ظهر فجأة بعد ان اختفى فجأة دون
سابق انذار .

وأجاب الشيخ من صميم قلبه مرحباً :

- الله يقوي شبابك ياأبا الموت تفضل .. حَوَّلْ . وكان الفارس قد وصل
الى الشيخ بينما كان حصانه ينخر من فتحتي خطمه بشدة وعصبية وقال الفارس :
- بالله عليك يا ابراهيم أممكن أن تسقيني دمة ماء ! .
ومد الشيخ يده الى الابريق بلهفة وراح يهزه مطمئناً .. ثم قال :

- ماتكرم عينك .! الله يعطيك العافية .

وأراد أن يسأله بضعة أسئلة على سبيل الاطمئنان غير ان
الفرس لم يمهله . اذ ما كاد يعيد الابريق الى صاحبه حتى جمع
حصانه فجأة واختفى وراء سحابة من الغبار في طريقه الى القرية .
وهز الشيخ رأسه متمماً :

- الله يكون في حراستك يا ابني ..

ويبدو ان دعوة الشيخ كانت متأخرة بعض الشيء ، اذ
ما كاد يفكر في أن يستلقي قليلا ليستريح شيئاً من القيلولة ،
حتى سمع هدير محرك يتجه صوبه ، والتفت بتؤدة الى
الخلف ليرى بعينيه الكيليتين سيارتين .صفحتين بلون
الارض تتجهان اليه وقبل أن تتوقفا تماماً هبط من احداهما
ضابط فرنسي وابتدر الفلاح بلهجة مفككة ركيكة :

- انت بتعرف واحد مسلح راكب حصان مر من هنا . ؟

ووقف الشيخ محني الظهر يتكئ على شجرته ويتأمل جزمة
الضابط وسوطه المفروس في فتحتها ماداً لسانه الى اعلى مهدداً
كلسان افعى سامة ، وعلى خاصرته تدلى مسدس من عيار ثقيل ،
وراح يرفع أنظاره الى أعلى شيئاً فشيئاً دون ان يجيب .. وكرر
الضابط بعصبية :

- ماتكلم يا شيخ النحس .!؟

وأشار الضابط الى أحد أعوانه كي يتفاهم معه .

وكانت الفكرة الاولى التي راودت رأس الشيخ هي انه اذا
مادل على حامد ، فانهم سيتبعونه على الفور وليس لهم من طريق غير
هذه الدروب الضيقة التي لا تتسع لمرور السيارات ، وعندها سيتلفون الزرع
والغرس الذي ظل يعمل من أجله طوال نهاره ، غير انه ما كاد
يعاود التفكير في القضية حتى قرر فوراً أن يجيب عن سؤال المترجم :
- انني لم أر أحداً طوال اليوم منذ الصباح حتى هذه الساعة .

لم يكن صوته مرتجفاً او غامضاً ، كان واضحاً وهادئاً كل
الهدوء مما أهاب بالضابط ان ينفخ كلمة في وجهه ويمضغ
كلمة نائية ربما عنى بها كلمة قدر أو ثاب او ماشابه ذلك . .
وغرس قبضتيه في خاصرته وتلفت حوله بنفاد صبر ، فلم تقع
عيناه في المحيط المترامي حوله في المدى البعيد ، إلا على القرية
الصغيرة الجائمة في سفح جبل حرمون . ثم عاد يتفرس في
للمامح الشيخ الصخرية بامعان ، وكأنه يحاول قراءة أفكاره
(الا نستطيع أن نستخلص من هذا الشيخ البالي اعترافاً ما عن
مكان هذا المجرم الذي اقلق راحتنا وأمننا طوال سنوات . .
دون ان يجشمنا عناء البحث والتنقيب والتعرض للمتاعب ، لقد كان
على مرمى أنظارنا حتى نهاية الطريق ثم اختفى في هذه البقعة)

وفطن المترجم الى ما يدور في خلد سيده فعاود سؤال الشيخ
محاوياً ان يكون معه رقيقاً عطوفاً ان امكن :

- اسمع يا .. اسمك الكريم ؟

وأجاب الشيخ ببراءة الطفل :

- مخدمك ابراهيم القابوني .

وتنحنع المترجم وكان يرتدي كسيده بنظالا قصيراً وقميصاً
من النوع انماكي ، وقد حجب رأسه بقبعة عريضة الاطراف ،
ولف عنقه بستارواق من الشمس ثم قال بلهجه ناضحة بالتهذيب
حاملة صيغة التهديد في الوقت نفسه :

- انت تعلم ان حامد الطاحان الملقب بأبي الموت محكوم عايبه

بالاعدام (وتوقف) .

ان كلمة الاعدام كلمة مخيفة، يجب ان يجد تعبيراً آخر اقل خطورة فصاح فجأة:

- اعني انه خارج على القانون وانت ولا شك لاتحب هؤلاء

الذين يعملون على الاساءة الى سمعة البلد ولا تريد ان تعمل على

اخفائهم والتستر عليهم خاصة وان السلطات (وأشار برأسه الى

الضابط الذي راح ينفخ بنزق شديد) تعمل ماوسعها على حفظ

الامن واحلال النظام في بلادنا .. العزيزة .

وتطلع الى الضابط برضى وكأنه يطلعه على مدى التضحية

التي يقدمها إليه وعلى اخلاصه وتفانيه في الخدمة .

وبدا أن هذه الصخرة لا تحمل في جوفها ماء ولا يبدو أنها تنوي ان تتفتت ، فقد تشعثت من أذني الفلاح شعيرات طويلة غبراء وكأنها تطل برأسها لتسمع بدورها حديث المترجم ، وظهر ان هذه الشعيرات وحدها فهمت كلامه اذ انها هزت رؤوسها بوقار عندما لامستها نفخة هواء شديدة الحرارة . وكان الشيخ بعينه الكابيتين المملوءتين بالغبار قد حاول ان ينظر الى محدثه بأدب وأن يجعله يصدقه حتى ولو بصق في وجهه . فرفع يديه المتورمتين الى أعلى ثم هبط بها وهو يقول :

- ها أنا تحت تصرفكم ماتريدون مني أن افعل هل انا أحب المجرمين ؟ .

وردد في نفسه ، المجرمين ! أنا اعلم ان « حامد » لم يقتل أحداً من أهل بلده بل انه لم يؤذ دجاجة ولم يأخذ في حياته شتلة من شتلاتي او يقطف جوزة من شجرتي فهو ليس مجرماً . ونظر المترجم الى وجه سيده بارتياح وكأنه يريه انه أحرز بعض الظفر .

كانت السيارتان المصفحتان قد وقفتا على حافة الحقل مباشرة دون ان تظفئا محركيهما ، وقد امتدت من برج كل منها فوهة مدفع رشاش تلمع تحت لهيب الشمس المحرقة وكانت خوذ الجنود تطل من الابراج لاحداث الاثر اللازم في نفس هذا الرجل المتحجر .

وظن الضابط ان ثغرة قد فتحت في لسان الشيخ فأراد ان ينفذ منها مباشرة فسأل بحدة :

- بون ، أي حسناً وكلمات أخرى ، معناها ، دلنا الآن من أين ذهب حامد فقد رأيناه يمر من هنا .

كان الفلاح يعرف بصورة اكيده أن حامد أو هامد كما يسميه الضابط الفرنسي لن يكون فريسة سهلة لهم او لمصفحاتهم اذ انه ما يكاد يسمع هدير آلاتهم حتى يتسلق الجبل ويختفي في طرفة عين ، وعندئذ سيصبح أهالي القرية عرضة للتنكيل والتعذيب. وهناك قد يقبضون على زوجته آمنة ويستجوبونها وقد يعثرون على ولده يعقوب ويصبون عليه جام حماقتهم وغضبهم . كما سيتعرض كل اهالي القرية الآمنين لأنواع الإهانات . من أجل هذا قرر بكل ما أوتي من خبرة عمره الطويل وتمرسه بأمثال هذه القضايا ان لا يدعهم يتجاوزونه خاصة وان الشتلات العطشى ستلف على أي حال قبل ان ينتهي من فتح الساقية .

وفي خضم أفكاره نسي أن الضابط وجه إليه سؤالاً وانه ينتظر الجواب بأسرع وقت ممكن ، ولسبب ماخيل الى (الفرنسي) ان هذا الفلاح الذي يقف امامه ليس بشيطان رجيم وانه يخفي اشياء لاتبين على تجاعيد وجهه الجامد .

وفجأة أحس الشيخ بالسوط ينال على وجهه . وبسرعة

كان خيط الدم قد وجد مجرى سهلا في تلافيفه فانساب بسهولة حتى وصل الى صدره . . . وخشخشت اوراق شجرة الجوز العتيقة على هبة هواء ثم راحت توشوش بعض اسرارها .

وجارت الشتلات الصغيرة التي بدأت تذبل في وجه الشمس تعذب على قطرة من ماء . وكان خيط الدم ينساب من وجه الشيخ حتى يصل الى صدره العاري فيتخلل الشعيرات البيض الصفرة المتفرقة . وترنمت الشعيرات قليلا فقد أتاها السقي من حيث لا تتوقع ، ورفع الضابط الفرنسي سوطه مرة ثانية وهوى به على الوجه الصامت ، فأحدث مجرى جديداً لدم أحمر قان متدفق .

كان رأس الفلاح قد ارتفع اقصى ما يستطيع وشمخ صدره على نحو لم يألفه في عصر شبابه ، وكأغما قومت الضربات انحناء ظهره وردت اليه ماخسره من سني الحياة الطويلة وجعلت مشاعر عنيفة وحادة - استغربها هو نفسه - تتفاعل داخل قميصه الازرق الدامي . لم يعد ينبس بينت شفة . غير أن شفثيه المرتجفتين كانتا تريدان أن تقولا شيئاً . . شيئاً غريباً للغاية وحاسماً في الوقت نفسه .

وجمع الشيخ اطراف قوة ستين سنة من الكدح وحب

الارض والشجر والتراب و .. حامد الطحان . جمع الشيخ هذه
القوة الجبارة جميعها في جسد غار نحيل وقذف بها على صدر
الضابط الفرنسي ..

وبينا كانت يد ناعمة مرتجفة تعيد المسدس الى نصابه ، كانت
شتلة خضراء ذابلة تتفتح شيئاً فشيئاً ، وهي تمتص نجيعاً احمر
مزوجاً بالتراب .



الدخان

كانت حزمة كبيرة من جذور الأشجار تندرج على الطريق ،
وسط الوادي الصخري العريض ، ترتفع وتنخفض وتمايل بينة
ويسرة تبعاً لوعورة الطريق واعوجاجها ، ثم تهتز وتهتز كأنما
يسير تحتها بحش أعرج بليد . وصعدت الحزمة مرتفعاً صغيراً ثم
استوى أمامها سهل أحمر . وتوقفت قليلاً كأنما تريد أن تستريح ،
وتصاعد من جوفها لهات ضئيل متقطع ، وارتجفت في أسفلها
ساقان نحيفتان يابستان كعصوين ، وتمايلتا في جميع الاتجاهات ،
ثم تابعتا السير . كانت القدمان الصغيرتان عاريتين ، وكاتتا تنتقلان
بسرعة وبخطوات ضيقة ضيقة ، كأنما ترقصان على المسامير .
وارتفعت من وسط الحزمة عينان حمراوان ذابلتان ، تضافرت
أهدابها الطويلة كأنما عجن بماء مالح . ثم تصاعدت من أحشائها
أثنة واهنة :

- يارب .. متى ينتهي الطريق ..؟

وأرادت الفتاة الصغيرة أن تفكر في شيء معين ، غير أنها

وجدت نفسها فجأة تعيش فيه ، فأسلمت نفسها للريح التي أخذت
تدفعها دفعاً قوياً باتجاه المخيم .

كانت الريح تكتسح الارض مجنونة نائرة ، وتضربها بأجنحة ثقيلة
مسلحة بملايين الإبر الواخزة الباردة ، التي تخترق الاجساد حتى
العظام وتجمد الدماء في العروق ، وتصفع الوجوه صفعاً مؤلماً
وكأنما تثار لنفسها من كل متبرد . وكانت تعول وترأر وتقتل
حول الفتاة وحزمتها ، كأنما تحتال لتصل الى صدرها لتخمد
انفاسها قبل أن تصل وتشعل النار ، ومدت الطفلة عينيها وزفرت :
- يارب .. لقد هبط الليل ..

كانت الحزمة تجثم فوق ظهرها الهش ، تهصره هصرأ وتلصقه
لصقاً حاداً بصدرها ، وتضغطه بوحشية نحو الارض حتى تلاشت
أنفاسها ، وأصبح من المستحيل امكان التصور بأن تحت هذه
الحزمة تتحرك نفس بشرية صغيرة .

وظلت الحزمة تتدحرج .. وترددت قليلاً أمام بقعة سوداء
ثم مالبت أن خاضت مستنقعا تكسوه طبقة سميقة راحت تتكسر
كالزجاج . وارتفعت العينان مرة ثانية وأرسل الصدر زفرة
مسحوقة طويلة . . .

كانت كل حاسة من حواس الفتاة تعمل منفردة وفق الالم
الذي تكابده ، أما عقلها فكان منهمكاً بفكرة سيطرت عليه

كالظلام المتجمد . ومرت الحزمة أمام بناء متهدم ، اتجهت نحو اليسار ، لقد وصلت الى الخيم ..

كان مخيم (خان الشيخ) يتألف من أكوام صغيرة مبعثرة على الارض ، لا يمكن اذا ما انفصلت عن بعضها ان توجد لها أسماء ، أما اذا اجتمعت معاً جنباً الى جنب فيمكنها أن تشكل مأوى لأشياء .. كل الاشياء ماعدا الانسان .. غير أنه لسوء الحظ لا يعيش داخلها غير نفوس لاجئة ..

ان الكوخ غير الخيمة ، والخيمة غير الزريبة ، والزريبة غير القبر . ويبدو أن تاريخ البشرية لم يشهد مثل هذه الملاجئ في حياته الطويلة ، وإلا لوضع لها اسماً في يوم من الايام . . . كانت كل قطعة من هذا الخيم عبارة عن أسمال وصلت ببعضها بطريقة معقدة ، غرست أطرافها بالارض ، وارتفعت أواسطها على عصي مرتجفة فأمكن بذلك استخدامها لدفن الناس أحياء .. أو على الاقل حجب وجوههم - التي ضاعت معالمها - عن يهرب منها لينساها . وكان مما يزيد في صعوبة تسمية كل قطعة من هذا الخيم ، ان الواحدة منه لا تشبه الأخرى في أي حال ، اللهم إلا أنها تحوي نفوساً انسانية يؤلف بينها شعور واحد ، وتجمعها كارثة معينة ، وقد يدهش الانسان اذا ما عرف أن احدى هذه القطع مؤلفة من مجموعة خيش ، وحصير ، وبساط . وأشياء

أخرى ليس لها تاريخ . . ورغم بؤس هذه الملاجيء وتنافرها
وجهل هويتها وعدم الاكتراث بتسميتها ، رغم جميع هذه العلل
فإنها تبدو دائماً وأبداً كأنما تقدم لسكانها فضلاً كبيراً وخدمة
فائقة الجلال .

وانه لما يدعو الى البكاء والضحك معاً ، ان هذه الجمادات
التعيسة الزرية تحس وتشعر بأنها احسن حالاً وأجل قدراً من هذه
الارواح الانسانية التي تمضنها في احشائها .

كانت الريح العابثة الساخرة تلعب بالاسمال ، فترفها وتخفضها
وتهزها هزاً عنيفاً حتى تكشف عن سوءاتها تكشف عن الوجوه
الشاحبة ذات التقاطيع الجامدة . . عن الاجساد الممددة العارية . .
تكشف عن الجوع والمرض والخوف . . كانت الريح تكشف
هذه السوءات جميعاً ، فتخجل الاسمال وتنطوي على نفسها . . على
الاجساد التي تضمها ، أو تطير مولية هاربة ولو الى الجحيم . .
اذ لم يعد في مقدورها ان تستر الى الأبد جرائم الناس ، وتلوى
الرؤوس والاجساد وترتفع الانظار الى سماء لم يعد ما يظلمها ، ثم
توسد الارض وتنام . .

صاح رجل من الداخل بصوت ضائع :

- فطوم . . فطوم . . أين انت ايها النجسة ؟

وهز رأسه الى الاعلى والاسفل كحصان يطرد الذباب عن
عيونه وغمغم :

- انها لا تجيب .. لقد هربت .. هربت .. بقيت وحيداً إذن ..
ولف نفسه بين ساعديه وطوى رأسه بين ركبتيه وراح
يرتجف . فم يفكر أيضاً ؟ لقد كان يتذكر كل شيء مع
زوجته ، ولكنها ماتت هذا الصباح .. ماذا بقي له ؟ فم يفكر
أيضاً ؟ لاشيء مما حوله يبعث على الذكرى .

- فطوم .. اين الخطب ؟ آه ..: مت من البرد .. لقد
ذهبت .. أكلها الوحش ..

ليته يستطيع ان يفعل شيئاً من أجلها .. لا بأس .. سوف
تدفن مع امها . وفتح الهواء من ورائه كوة كبيرة ، فانسابت
الى عظامه برودة تهرؤها ، والتفت الى الخلف واخذ يعالج سدها .
- فطوم .. يا كلبة .

وضغط بيده طرف الحصيرة ووضع فوقه حجراً وزفر من
اعماقه زفرة مستطيلة .
- ساموت ولاشك .

وأحس في خاصرته ضرباً مؤلماً كاد يكسر اضلاعه ، لقد
رفع الهواء الحجر والقي به على خاصرته .
- فطوم .. آه يارب .. أين ذهبت ؟

وأخذت الحصيرة ترفرف بأجنحتها والهواء يكتسح الظلام
ويهرب الى الداخل وكأنه يلتجئ من عدو يطارده . إن اغلاق
الخيمة بصورة تامة امر ضروري جدا ولو ضحى بالنور من أجله
فالظلام لا يقتل بسرعة ، لقد اخذ يفتك فتكاً ذريعاً هذه الايام
ولم يجد سكان المخيم بدأ من أن يفادروه بالعشرات . . انهم
يهربون .. انهم يموتون . والشمس لم تبرز اشعتها منذ اسبوع :
مطر .. هواء .. برد .. ثلج .. انهم يهربون وسأتبعكم ايضاً
وهذا الهواء اللعين ؟

- فطوم ايتها النجسة .. أين كنت ؟

لقد سقط شيء في الخارج وتسللت الى الداخل كقطعة سوداء .
- فطوم .. آه يا ابنتي هل وجدت حطباً ؟ حزمة كبيرة ؟
كبيرة جداً ؟ سدي هذه الثقوب لقد تفتت عظامي .. حركي
الرماد لايزال يوجد بصيص .. حسناً .. هيا سأساعدك .
ومد يده وتحسس رأس ابنته .

- أما زلت تبكين ؟ ما هذا ؟ عرق ؟ انت دافئة اذن . . أنا
أموت من البرد .. سيأتي الدفانون هذا المساء .. لقد استراحت .
كانت تذيب قلبي بأينها . انفخي جيداً . . بفمك . . بطرف
ثوبك .. هكذا .

وأمسك بغطاء رأسه بكلا يديه وراح يهزه أمام الحطب .

كان الظلام قد بدأ يسيطر في الخارج وأما في الداخل فلم يطرأ أي تعديل ، الظلام هو الظلام .. غير انه بدأ يزداد جموداً . وأحس الرجل ببعض الطمأنينة ، فسحب نفساً طويلاً ، وقد بدأ يشم رائحة الدخان .. ونشطت يده وراحتا تهزان الغطاء بانفعال ، لقد بدأت تشتعل .. وابنته تنفخ بفمها ، والدموع تتساقط من عينيها ، وانفاسها تتلاحق ، لم يتصاعد اللهب بعد ، ولكن الدخان بدأ يتكاثر حسناً .. ان هذه بادرة طيبة ، الدخان هو اول النار .

- هيا .. انفخي .. اني أساعدك .. هه .. آه يا ابنتي العزيزة ظننت انك هربت مني .. وانت تعلمين انه لم يبق لي غيرك .. . لقد ماتت امك .. ايه .. الله رؤوف بها . كانت تشعل النار بنفسها وتدخر لنا الخبز .. هل تعشيت ؟ خذي (ومد يده الى صدره وأخرج .. قطعة يابسة) هذا من تعيين اول البارحة ، لم يأتنا التعيين منذ يومين ، يبدو ان الاعاشة قد نسينا أو انها ملت اطعامنا .

وسمع في الظلام قرص خبز .

- لقد وعدونا ببطاقة جديدة ولا أدري ماذا ينتظرون ؟ انهم لا يأتون الا متأخرين ؟ هذا هو شباط والشتاء يكاد ينقضي .. مالك صامته ؟ . (ومد يده الى رأسها) . اما زلت تبكين ؟

ولاتحيب الفتاة .. ولكنها تحمل الحطب وتنفخ وتأكل .. هي
تعمل دائماً غير أنها كحيوان الناعورة يدور باستمرار ، يجلب
الماء وهو ميت من العطش . وهي منذ أن أفاقت هذا الصباح
ورأت أمها الى جانبها ميتة ، اصابها سكتة . لقد ذرفت دموعاً
كثيرة دون أن تدري ماالسبب . . وعلى كل حال لقد بكت
كثيراً وعلى نحو متصل ، طوال الطريق وهي عائدة . . والآن
تفعل كل شيء ، ولكن دون تفكير .

وبدأ الدخان يتصاعد ، فملاً خياشيم الرجل ، وتسرب الى
رأسه ، لم تشتعل النار بعد ، غير أن الطمأنينة تزداد ، ان
هذا الدخان يبعث على الأمل ، وهز مروحته بعنف . ان الدخان
هو أول النار .

كان طوال النهار وحيداً لايجد من يرجع صدى شكواه ،
المراته تنتظر الدفن في خيمة بعيدة ، وابنته راحت تحتطب ،
وهو لم يجسر على الخروج ، بل لم يقو على ذلك . ان مفاصله
تؤلمه المأ شديداً فضلاً عن أنه لايستطيع الوقوف على قدميه ،
وقد جرب مراراً ففشل . والعلة الرئيسية ليست في قدميه بل
في رأسه ، انه ما إن يستوي واقفاً حتى يحس بغيمة داكنة
تجذب عينيه ، وبطنين مدو يعصف برأسه ، فيسقط بسرعة
ككيس فارغ ! أهو قلة الغذاء ؟ أم الفراغ . . أم المرض ؟ .

وهو كلما أحس بذلك هرب الى ابنته وذكرياته . . ذكرياته
هي كل ما يملكه .

- فطوم . . يا ابنتي انفخي النار . .

وتصاعد دخان كثيف . . لقد كان له بيت وبقرة وثور
ومحراث وأرض كبيرة وأشجار برتقال . كان سعيداً مع الجميع ،
حتى مع الثور ، كان يحس في كل مساء عندما يضع له العلف
انه ينظر إليه بحنان ، وعندما يخور كان يصغي اليه بوقار وكأنه
يناديه . هذا الثور كان وإياه يشقان التراب الاحمر بالمحراث ،
بهدوء وبطاء ، تحت شمس الخريف الطرية . وفي أواخر الربيع ،
عندما كان يمتد أمام ناظريه بساط ذهبي من السنابل ، كان يقف
سعيداً سعيداً ، وييده منجله المسنون ، لقد خلق شيئاً رائعاً .
ستمتلىء كوره بالقمح والشعير وستصنع زوجته بيديها أرغفة
كبيرة ، وفي المساء كان يسمع خوار البقرة والثور ، ويلمح
زوجته الى جانبها تعصر ضروعها ، والحليب الحار ذو الرغوة الذكية
والرائحة المنعشة يملأ السطل . آه . . ما أجمل تلك الايام ! . كان
يجد ابته دائماً الى جانب البئر ، فتستلم منه الثيران لتوردها الماء
من البئر . . البئر التي حفرها بيديه ، وساعدته زوجته على بناء
حاجزها الحجري .

وهناك المصطبة الحجرية تتربع جانب دار آبائه بوقار وجلال:

ما أعظم هذه الجدة العجوز ! التي ظلت تحتضنه منذ أن كان
طفلاً وكان يلتجئ الى ظهرها ، وينتصب فوقها ، هائلاً من
التيس ذي القرون الطويلة ، ثم يستلقي على برودتها في أمسيات
الصيف فتزهه هزاً ناعماً حتى ينام .. هذه المصطبة التي لا تزال
تحمل آثار لهوه ورائحة طفولته .

وأحس بقشعريرة هائلة :

- فطوم .. فطوم ..

ومديده .. ليس هناك سوى الفراغ .

لقد ذهبت ..

وأطل على النار ، لم ير شيئاً ، سوى دخان ، دخان
كثيف .. كثيف يطغى على الذكريات . وانحنى على الحطب وأخذ
ينفخ ، وازداد الدخان ولم تشتعل النار ، لا بأس .. ان الدخان
يبعث على الأمل .. الدخان هو أول النار .

وطوى جسده بين ساعديه . وأغرق رأسه في صدره ،
وضم ركبتيه الى ذقنه ، واهتز الى أمام والى خلف كدمية من
الرصاص . وتمنى لو يختصر جسده بأصغر حجم ممكن . بقط مثلاً ،
اذن لا استطاع أن يلتفت ببطانيته عشر مرات وبذلك يحس للدفع طعماً . أما
الآن ورغم استغناؤه عن رأسه وأطرافه فهو لا يزال يشعر بهراء البرد .
ايه .. فليتك ..

أين بقرته وأي ذئب سحق عظامها ؟ أين ثوره ؟ في أي
مسلخ حطم رأسه ؟ وأي قدم تنتعل جلده الاسود ؟ أين محرائه ؟
هل صنعت منه حربة لامعة أم اعتراه الصدا في واد من الأودية ؟
والبئر ؟ . ألا تزال تنضح ماء أم نبت في اسفلها الشوك ؟

والبيت ؟ . اما زال قائماً أم اضحي ظللا من الاطلال ؟

نعم . لقد ترك الباب مفتوحاً ، آملاً أن يعود اليه في الغد
.. في الغد .. يا لهذا الغد كم تأخر .. ! ولكن الغد سيأتي لاحالة
وسيعيش من اجله .. نعم يجب ان يعيش . ترك ارضه الطيبة ،
تنعم بتربتها الدافئة ، والتي يرفرف جها في اعماق اعماق قلبه ، ترك
ترابه الذي كان يزحف بذراته الناعمة الى رأسه ووجهه ، ويغمر
حنايا صدره برائحته المفعمة بالحياة . ترك ساعته الفضية الكبيرة ،
ذات السلسلة الصفراء ، التي تتوارثها الاسرة أباً عن جد ،
هذه الساعة التي تحمل تاريخاً لجيل حافل . اما هنا فانه لاشيء ..
لاشيء على الاطلاق ، أنه كزوجته ، لافرق بينها ، هي ميتة
حية ، وهو حي ميت . ولكن من يدري . ؟ لعلها لم تمت ..
لعلها إن حملت الى هناك واستنشقت رائحة البيت ستدب فيها الحياة
من جديد ؟ . لعل قلبها لا يزال يخفق بشيء .. ! يجب ان
تدفن مع ذلك الأمل . ؟ آه أيتها الزوجة الطيبة لو انتظرت قليلاً ،

يوماً آخر على الاقل .. لو لم تسرعني بالرحيل .! ان فرنا هناك
لايزال حاراً وأمامه الحطب والطحين .. آه يارفيقة حياتي .!
لو انتظرت قليلا ريثما نعود .! موتي هناك ميتة طبيعية ، موتي
بيد الله ولأحفر لك قبراً عالياً في ارضنا وسأزورك كل يوم .
وظل يشرد بخياله وسط الدخان .

كان هناك سنبله في ارضه ، وكان يعيش مع كل حبة يزرعها ،
ينبت معها ويمتص من الارض ويتمايل واياها مع الانسام طرباً
ونشوة : وعندما كان يقف وزوجته ، وسط السنابل كان يشعر
بأدق حواسه بأنه تساوى مع الخالقين .

لقد كان سنبله تغمر رأسها مئات الحبات الذهبية ، سنبله
لا تقوى اعنف العواصف على نزع جذورها من الارض .
كان هناك سمكة في بئرته تعيش وتسبح في الماء .

كان ورقة خضراء على رأس شجرته ، وكان شيئاً عالياً في
رأس بقرته ، وكنزاً ثميناً في عيني كلبه الأمين .

يا لله .! ان هذه الذكريات لاتدفيء عظامه ! ان اسنانه
تصطك وعينيه تدمعان . تذكر انه لم يبك على زوجته . يجب
ان تشعل النار .

- فطوم .. ايه .. لقد ذهبت الى امها ..

وانحنى على الحطب وراح ينفخ ، انه لا يشتعل ، وهذا
الدخان الفظيع يكاد يخنقه ، لا بأس النار اولها دخان . سوف تشتعل .
كان الهواء يصفر في الخارج هـازئاً ، فاشراً اشرعته ،
ساجماً في الفضاء والارض ، يضرب كل شيء ، يردد بين لحظة
واخرى صراخ طفل عنيد . وتناهت الى اسماعه ضجة قوية ، وسمع
عدواً ، وصوت ابنته لأول مرة في ذلك اليوم .

- لقد جاؤوا .. جاء الدفانون .

وظل صراخ الطفل الثائر يعلو وسط العاصفة ، كأنه يبحث

عن سريره .



العم

كنت امير وحيداً صامتاً شارد الفكر ، منطوياً على نفسي
التصق بالحائط وكأني أريد أن أتواري عن الانظار . وكان
الطلاب جميعهم مندفعين من المدرسة عصر ذلك اليوم اندفاعاً
صاحباً يثرثرون ويصيحون بفرح ونشوة . ترى ألا يمكنني ان
ارافق أحد هؤلاء الطلاب في المدرسة وأتحدث عن شيء ما
ببهجة وطرب ؟ ترى عم يتحدثون ثم يضحكون . هاهنا
اثنان يشيران الي ثم يتهاوسان . ترى أيعرفان الى أين أنا ذاهب ؟
أيعلمان اني ذاهب الآن الى المستشفى لأعود أمي التي فقدت
دماءها البارحة ؟ لم يخفي أحدهما وجهه وقد كتم ضحكة في
حنجرته . لقد قلت لوالدي مراراً ان يشتري لي سترة جديدة
فأجاب وهو يهز أختي الرضية : انظر يا ولدي الى اخوتك
انهم صفر الوجوه ، جائعون ! يجب ان تساعدني انت
على اطعامهم بدلا من ان تزيد الطين بلة . وسترتي الآن ليست
وسخة ولكنها عتيقة بالية وهي تخفي كل ماتحتها ، ولكنها لم

تستطع ان تستر البنطال الازرق الذي لايزال يثير الطلاب في
درس الرياضة ، فيجعلهم ينفجرون ضاحكين ضحكات طويلة ثابتة
كالرصاص . هذا البنطال الذي ضاق ذات يوم على كرش عمي
فباعني اياه بثمان بخس ، ومع ذلك لم ينسه ، فقد وقف مرة بين
شرذمة من عملائه تجار الجلود ، وقف عالياً ضخماً كالمارد ،
وقد باعد ما بين قدميه ، وغرس في خاصرته قبضتين دامتيتين
ولوى رأسه مختالاً ، وكأنه هو الذي خلقتني : وقال انظروا الى
هذا البنطال انه اول سروال لبسته في حياتي .

ترى أياكون هذا البنطال سبب الضحك . ؟ لماذا لايسألني
أحد هؤلاء الطلاب سؤالاً ؟ كأن يقول لي ما أصعب هذا
الدرس ! . وهل كتبت وظيفة الغد ؟ أنا اتهب السؤال . .
اخشى ان ينظر إلي بازدراء دون ان يجيب . أو أن يشكوني
الى المعلم فيقذفني هذا بمسطرته ثم يستدعيني المدير ويقول لي :
اذهب الى البيت واحضر والدك ياقليل التربية . . ان الجميع
يضحكون علي في صف هؤلاء الطلاب : المدير والاساتذة وحتى
الأذن الذي يعدو دائماً من ورائهم يتصيد القروش التي تسقط
من جيوبهم . هاهما طفلان من سني يعدوان وراء كرة ملونة ،
لكم تمنيت ان تسقط هذه الكرة في بئر أو بالوعة ، ليقفها
حياها عاجزين يبكيان ، وأذهب لنجدتها واغوص في الوحل ،

وألوث وجهي بماء الشارع حتى اغثر عليها ثم اقف متواضعاً
واقدمها اليها بأدب ومنتهى الاخلاص ، عسى بعد هذا كله ان
ينظر إلي كمخلوق جيد ذي نفع وأن يعرف الجميع اني احبهم
وأتمنى لو اخدمهم وأصدقهم .

غير ان المسألة الآن تختلف ، هناك قضية اخرى ، اني
ذهبت الى المستشفى ، سأجد هناك بعض السلوى ، أمي مريضة
تعاني نزيفاً حاداً ، سأجدها الآن مستلقية في السرير ، وفوق
رأسها كعكة وكأس حليب ، سوف تبتم لي ، وتسالني عن
اخوتي هل اختك الصغيرة بخير . ؟ قل لايبك لا تجوعها . ؟ فهي
لا تزال رضاعة ، وقل له ان يتفقد اخوتك في الليل وان يغطهم
بالبساط والجلود اتقاء البرد . ستقدم إلي كأس الحليب ، وسأرفض
تناولها بآباء فإن الحت فالامر واضح سأأخذها ، وسأكرعها
دفعة واحدة

ورجعت بذاكرتي الى أمس حين عدت من المدرسة . وكانت
تخالجني الافكار المدرسية نفسها ، فاستقبلتني عمتي العجوز ،
(خير إن شاء الله . فهي لا تزورنا الا في المناسبات الكبيرة ،
وناة احد اخوتي ، او ولادة اخ جديد ولا شيء غير ذلك الا
مرض والدتي الخطير الذي كان يداهمها في مناسبات معينة ، اذ
يقعدها الفراش ويفقدها النطق والحركة) . وهجمت عمتي علي ،
وعانقتني وقبلتني ، وعزقت رأسي رائحة فمها النتن الابخر ، فهي

تصوم دائماً لهذين السبيين : الفقر والثواب .. ثم قادتني الى الغرفة
الوحيدة التي يتكون منها بيتنا القديم . ووجدت أمي بلا مقدمات
فاقدة نصف حياتها ، والى جانبها ، وجد صحن كبير مملوء حتى
حافته بدماء سوداء يسبح فيها مخلوق لم يتكون بعد ، تتلوى حوله ،
امعاء واشياء اخرى يصعب معرفتها ، وأشارت أمي بيدها فهرعت
اليها عمتي ، وكشفت عنها الغطاء ثم سحبت من تحتها خروفا
كبيرة تقطر دما . كانت تقوم بعملها هذا بنشاط وسرور ، وهي
تسبح بحمد الله وتتوسل اليه بكلمات غير مفهومة وهمس صادر
من القلب . وكان والدي منزوياً في ركن الغرفة ملتفا بعباءته
حتى صلته ، لا يظهر منه غير أنف كبير وشاربين أشعثين
حرقهما الدخان . وكانت تصدر من جوف عباءته تأوهات وتهدات
مصحوبة بزججرة تم عن الهم والقلق . والتفتت اليه عمتي وهي
تراول مهمتها دون تأفف : (اطمئن يا أخي سوف ينقطع الزيف ،
عما قليل غير انها بحاجة الى غذاء لتعويض الدم النازف : حليب ومرق لحم)
ويزفر ابي زفرة عنيفة فيتصاعد البخار من جوف عباءته ويحجب
بصوت اقرب الى البكاء .

— يا أختي اني غير مشفق عليها ، انها تستحق ذلك قلت لها
مرارا لا تنعي نفسك وأنت في شهرك الاخير . ولكنني اخاف
على هؤلاء الاطفال من يعني بهم ؟ من يطعمهم ؟ .. لا يوجد من
يطبخ لهم لقمة مجردة أو ملعقة شوربا ، كلهم اطفال صغار .

وتحيب عمتي - والله يا أخي ، ان هذا كله دم فاسد ،
سوف يفرجها ربنا ، ولن ينسى هؤلاء الاطفال فهو الذي خلقهم .
وتهتز العبادة قليلا وكأنها لا تؤمن بما تسمع ، كان
أخوتي الستة ، متناثرين في أرض الغرفة الضيقة ، كقطع أثاث
عتيقة وبالية . صامتين شاردين لا يفهمون ما يدور حولهم . وكانهم
ينتظرون اللحظة المناسبة ليطلقوا فجأة اصواتهم معولين صارخين .
وطرق الباب في تلك اللحظة ، ودخل أخي الاكبر بטרבוشه
الاسود وقبازه الحريري وقال بتهدئة :

— لقد آتيت بالعربة يا أبي .

ولم ينتظر الاجابة بل تطلع الي بلوم أمرا :

— متى حضرت يا ولد .؟ لقد قمت بالاعمال كلها وحدي ..

انك غير نافع لغير الطعام والنوم قم .. قم ارم هذا الدم ..

أعمى ، الا ترى امك تموت .؟.

وقال والدي من جوف عباءته :

— هل شارطت العريبي على الأجرة ؟

فأجاب دون ان ينظر الى مصدر الصوت ..

— بعد الف جهد لم يرض باقل من ليرة ؟

ورد والدي بصوت جديد مستنكرا - ليرة سورية .؟ يا له

من سارق ، كافر ، .! قاطع طريق .! هل عرف ان أمك

تموت فأراد ان يستغلنا .

ثم سعل بقوة ، وسمع صوت اصطكاك اسنانه وهو يبصق في اتجاه مجهول . واستأنف :

— هؤلاء الكفار .. الم يبق اسلام بهذا البلد .؟ ليرة سورية .. الله يلعنهم ويلعن حاجتهم . ثم صمت مفكرا ، وعاد الى القضية التي بدأت تؤرقه فسأل :

— الم تسأل غيره .؟ كان يمكنك ان توفر ثلاثين قرشا على اقل تقدير والآن مشي الحال لا .. لا يمكنني ان اعتمد عليكم بشيء .
وحملت أمي الى العربية وركبت مع عمتي وكانت تبدو سعيدة للغاية ، فراحت تصدر تعليقاتها بحرارة الى السائق والى ابي والى .
— سق على مهلك .. انت الحقنا الى المستشفى اغلق الباب جيدا ، أنت ألا تسمع .؟ احذر رأسها . لا ، هكذا ..

وسارت العربية يجرها حصانان قويان . وتبعثر اخوتي على طول الطريق من عتبة الباب حتى رأس الحمار ، وقد انستهم هذه الحادثة ان ينتعلوا احذيتهم فوقفوا حفاة مقرورين ، وكأنهم قطع البسة ممزقة ، قذف بها صاحبها ، قطعة وراء قطعة ، وهو يعدو الى الشاطئ ليتخلص من حياته الشقية . وسألني اخي التي بدأ الكلام بتفتح على شفيتها الزرقاوين .

— ماما ماتت .؟ ماما .

وفي عتبة الغرفة ، كان اخواي التوأمان يجثوان فوق وعاء الدم ويفرسان اصابعهما في بطن هذا المخلوق الغريب .

- دادا .. دادا .

هأنذا اصل الى المستشفى طول . النهار يسرع ليختبئ في
جوف الليل ، الشمس ادركها الاعياء بعد طول مسير ، وقد
طاردها الغيوم طوال النهار ، فأثرت الاستسلام ، وسقطت منهوكة
شاحبة ، وراء الافق والاشجار العارية . ها هي ذي سيارة
يفتح تقف امام باب المستشفى ، يفتح بابها الخلفي ويهبط من الدرج
شخصان رجل وامرأة تلبس ملاءة سوداء . الرجل في الاعلى
والمرأة تحت . يحمل هو قدمين والمرأة تسند كتفين وفي الوسط
يتأرجح جسد ذو شعر اشقر طويل يكنس الدرجات بين اقدامها ،
المرأة تتعثر مرتين برباط ايض يتدلى من وسط الجسد ، وعينا
كانت مفتوحتين دون ان تنظرا الى شيء . المرأة ترفع الغطاء عن
وجها ، كانت صامتة غير ان وجها كان يعبر عن اشياء مخيفة ..
وفجأة زجرت زجرة غامضة فطمأنها الرجل :

- الله يسترك طولي بالك . في البيت سيتم كل شيء ..
ووصل الركب الى السيارة . فصاحت المرأة بغتة:
- يا ولدي !.

ثم ضحكت بصوت عال جداً ، وهممت وكشرت عن انيابها .
دخل الرجل اولاً الى السيارة وادخل معه القدمين ونصف
الجسد ، فتعثرت المرأة بالرباط مرة اخرى فسقط الرأس على
الارض وارتطم بالرصيف ، فاشترأبت العينان ثم عادتا الى محجريهما

ولم يبال الجسد بما حدث له . غير انه استقر في المقعد الخلفي
بهدهوء . وتحركت العربة فجأة تقبل اربعة مخلوقات بشرية ..
تاركة وراءها فراغا قاتلا .

ومنعتني احدى الممرضات من الدخول ، بحجة انتهاء وقت
الزيارات . ورحت اتجول في الحديقة الكبيرة . انظر الى النوافذ
العريضة العالية ، هناك ممرضات كثيرات يقفن مثنى وثلاث يلقين
نظرة الى الشارع ثم يرجعن . وصلت في تجوالي الى باب كبير
كتب عليه (قسم الولادة) لا شك ان أمي هنا .؟ واخذت
اراقب النوافذ من جديد . ها هي ذي امرأة تقف هناك وراء
سجاف رقيق ، هذه المرأة ليست ممرضة ، انها مريضة ولا
شك . كانت تضع منديلا ابيض ، ولم استطع ان اتبين ان لها
وجهاً ، هناك بقعتان سوداوان تتوسطان شيئاً لا يمكن التعبير
عنه ، اذ لم يكن له شكل .. كان سراياً ، ولم يكن شيئاً على
الاطلاق . ظلت المرأة واقفة لا تتحرك ، وخيل الي أنها تنظر
الي فترة من الوقت ، كما خيل الي انها ترفع يدها الى الاعلى ،
لم اتبين بالضبط من المقصود بحركتها هذه ، ومع ذلك التفت الى
الخلف ، لم يكن هناك غيري في الحديقة . وتحركت المرأة
قليلاً فظهر وجهها ، كان صغيراً ملائكياً ، تمنيت لو اتحسس
بيدي لاتأكد من وجوده . وفي تلك اللحظة تقدمت ممرضة ، لها
وجه منتفخ تأبطت ساعد المريضة ثم اسدلت السجاف .

ورجعت الى البيت متأخراً . فوجدت اخوتي الصغار يلعبون
وجاء والدي في منتصف الليل ، وشرع يوقد النار في المنقل ،
وكان ينفخ الفحم والدموع تسيل من عينيه كالسواقي . لم يمتد
الدخان ان يؤثر في عينيه . غير انه استطاع هذه المرة . وقال
لي وهو يعمل ويشهق :

- هل رأيت أمك ..؟

فأجبت : سأراها غداً فقد وصلت اليوم متأخراً .

واجاب والدي دون احتفال :

- لا ضرورة الى ذلك يا ولدي فقد ماتت أمك منذ قليل..

★ ★ ★

انا الآن شاب يافع تملأ رأسي الذكريات والاحلام، غير ان ذكرى
وحيدة تجعلني اعود طفلاً . فابكي بحرقه كلما حاولت استعادتها .
ذكرى سجاف النافذة عندما اسدل طاوياً وراءه ذلك الوجه
الذي لم استطع ان اتبينه، وجه أمي في لحظاتها الاخيرة ، وبذلك
طمست صورتها في ذاكرتي الى الابد ..

الحقة

وقفت الى جوار المحفر ، مستنداً الى شجرة الجوز العتيقة ،
بين اصابعى لفافة يابسة كأنما هي محشوة ببرادة الحديد ، تناولت
منها نفساً واحداً ، ثم انطفأت فأعدت اشعالها خمس مرات فقط ،
لان جلدها سلخ في المرة السادسة واندلقت من جوفها برادة
الحديد التي سميت « تبغاً » .

وكنت في ذلك المساء قد نزعت مسدسي من غلافه ووضعته
في جيب بنطالي الخلفي ورغم ذلك فقد بدا ثقيلاً جداً ، وتشبث
بجلاصي كأيد خفية تسمرنى في الارض لئلا أترنح وقد نزعت
المسدس من النطاق لكي اخفف ما استطعت من عبء الصمت
الثقيل الذي كان يجثم على الكائنات ، وعلى صدري ، حتى احسست
باني اكاد اختنق .

وما دمت بصدد الحديث عن الصمت ، فينبغي علي ان افسر
النواحي المأموسة في هذا الشيء الذي يدركه الانسان ولكنه لا
يستطيع ان يمسه ، فالصمت هذا الشيء البسيط جداً ، يستطيع

ان يقتل الانسان بهدوء ، او ان يفقده عقله ، او على الاقل
يمكنه ان يثقب اذنيه ويجعله اصم ، اصم لا يسمع شيئاً البتة .

الصمت هذا الشيء الرهيب المفجع ، انه اشد قسوة من هدير
الطائرات ، من انفجارات القنابل ، من دوي الرصاص ، من
اي ضجيج آخر ، انه يحمل الانسان على رفع يديه الى اذنيه
ليغلقها باصابعه .

كانت الشمس قد غربت منذ دقائق ، وسجبت وراءها شفقتها
الدامي ، لتهادى معه وراء قمة الجبل وقد بدأت التلال من حولي
تنشر ظلالها القائمة وراحت الاشياء التي كانت تتحرك من بعض
النواحي تظهر لي ضئيلة صغيرة ثم تختفي شيئاً فشيئاً حتى يطويها
الظلام بسرباله الاسود .. ولم أعد اتبين معالم الاشياء فوق التراب
الاغبر وخيل الي ان صدى تقيق الضفادع يتردد قرب اذني ، ولكن حين
حاولت الامساك به افلتت بسرعة ، وهكذا لم أعد اسمع او ارى
شيئاً البتة .

ان ازيز الناموسة او صرير الجنادب ، او تقيق الضفدع يفعل
في احاسيس الجندي الاعاجيب ، ذلك الجندي الذي جرب الصمت
وعاش فيه ليالي طويلة . فلا يعجب المرء ان يقرأ رسالة جندي
اسهب فيها بوصف صرصور تائه راح يشدو على مقربه منه

في ليلة مظلمة ، او وصف بعوضة منفردة حطت على خده في لحظة
من لحظات ترقبه وشجبت اسماعه بأزيز وئيد بعد ان تركت على
خده ندبة حمراء .

ان هذه الحشرات الصغيرة تملأ نفس الانسان بالحياة .. باسمي
ما في الحياة ، من انس ومرح وسعادة ، عندما تتحرك فجأة من
حوله ثم تترك اثرا يصل الى اذنه .

لا شك اني اتحدث برهبة وخشوع . وذلك لان للصمت
دويا هائلا في الآذان .. دويا ساكناً كالموت ، يجعل الانسان
مشدوها ابله ، يتمنى لو يحدث نفسه لسمع صوته على الاقل ،
او ليشعر بأنه حي في هذا الوجود الخفيف ، وعندما يخيم الصمت
تجمد الكائنات ، حتى اوراق الاشجار يعترها الشحوب فتبدو
كالجذور المدفونة تحت التراب .

يبد ان لهذا الصمت حسنة ، هي انه يجعل الانسان نفسه
يجمد ويستسلم للذكريات ، ولا شك ان هذه الصورة القائمة التي
اتحدث بها عن الصمت ، لها علاقة مباشرة بالموضوع الذي كنت
افكر فيه ، لقد كنت استسلم لذكرى الحادثة الاخيرة .

هنا في هذا المكان وقفت منذ اسبوع مع الملازم ممدوح ..
لم يكن المكان فارغاً كما بدا لي الآن ، ولم يكن الصمت يسيطر
على كل شيء .. لا لأتني كنت اقف مع انسان آخر .. ولكن

لان رفيقي كان الملازم ممدوح والآن اني على تمام اليقين بانه ليس هناك انسان آخر غير الملازم ممدوح الذي كنت اقف الى جانبه يمكنه ان يطرد هذا الصمت المقيت .

اني لا ادري بالضبط لماذا اعتقد ذلك .. غير اني واثق كل الثقة بان الملازم ممدوح هو الوحيد الذي يستطيع ان يسكت هذا الصمت .. لا شك ان حكيم هذا هو نتيجة فراغ مخيف خلفه شيء ما في نفسي .. قد يكون ذلك وقد لا يكون غير ان الحقيقة ان الملازم ممدوح كان انسانا غير عادي . ودليل ذلك انه استشهد في اليوم التالي .. لقد استشهد بعد ان قبر الصمت ودفنه تحت سيل من وابل الصياح والرصاص .

فراغ مخيف في نفسي ، خلفه فقدان صديقي الملازم ممدوح .. ولكن من لي باملاء هذا الفراغ .. اني غير حزين .. لانني اتذكر الآن قصة استشهاده فأنا اعلم ان الملازم ممدوح لم يموت بصمت ، وذلك ما يعزيني .. انه لم يموت كما يموت اي انسان .. ومن اجل هذا اقول لجميع الناس ان ممدوح لم يموت .. لقد ذهب .. نعم .. ولكن الى اين ! .. لا أدري انه لا يقف الآن الى جوار ليحارب الصمت .. ولكن لا يعني ذلك انه مات .. لأنه لم يقض كما يقضي كل انسان .

ان رصاصة واحدة في الصدر تكفي لقتل الانسان العادي الذي نعرفه ، اما ان يقاتل الانسان ويظل يقاتل ويصرخ ويدفع

رجاله الى الهجوم حتى يدحر آخر فلول العدو وذلك بعد ان يصاب برشة كاملة في صدره ، ان هذا ليس بالعمل الذي يستطيع احد ان يقوم بمثله ، فصدر الانسان العادي مركب من عظام ولحم ودم واشياء اخرى مجهولة لدي ، بلى ، من هذا كله كان يتألف صدر الملازم ممدوح .. بالاضافة الى العظام واللحم والدم ، ان صدر الانسان العادي يخرقه الرصاص وينفذ منه الى القلب فيموت صاحبه وينتهي امره .. اما الانسان الآخر .. الانسان الذي هو الملازم ممدوح من جبلته ، فان الرصاص وشظايا القنابل وكل ما من شأنه ان يعطل حركة القلب ، لم تستطع ان تنفذ منه . ترى ما السبب ؟ .. تراني اتحدث عن اشياء غير مألوفة لا قاوم الصمت ؟ ام انني احدث نفسي بصوت مرتفع لاسليها واشغلبها عن الفراغ المحيط بها من كل جانب ؟ .. لا أظن ذلك ، اني اتكلم عن حقيقة موجودة ومعروفة .

فالملازم ممدوح عندما سمع اطلاق الرصاص من مخفره الامامي ، وكان الظلام دامسا والهواء عاصفا ، والمطرينهمر ، افرغ جيوبه من محتوياتها ولم يترك فيها غير صورة صغيرة لابنته الوحيدة .. ابنته الصغيرة هي كل ما حققه في حياته بعد سبع وعشرين من السنين قضاها باحثا عن الحب والسعادة والاستقرار .

لقد وضع صورة ابنته في جيب سترته اليمنى ، وقاد فصيلة

من الجنود وتقدم بها نحو مصدر الضجة التي انبعثت من احد
مخافره الامامية .

لقد قال لي ابوه ، ذلك الرجل البسيط الطيب : « بكيت في
حياتي مرات عديدة من اجل ولدي ممدوح ، بكيت عندما رأته
يبحث عن اشيائه الضائعة فلا يجدها ، اما عندما رأته مسجى
بالنعش .. فلم ابك ولم تطرف لي شعرة في جفن ، بل كدت
ابتسم ، ان لم اكن قد ابتسمت فعلا ، وذلك لأنني وجدت ولدي
ممدوح يضحك .. نعم .. وجدته سعيدا وكان املي في الحياة
ان اراه كذلك » .

ولكن فيم طفرت هذه الطفرة ؟ يبدو ان افكاري تدور في
دوامة من الحوادث ، فلأعد .. عندما قاد الملازم ممدوح فصيلته
في الظلام نحو مصدر الصوت ، تلمس مرات عديدة صدره ، مكان
الصورة وضغط عليها باصابعه ، وبذلك اضاف الى قلبه شيئاً
جديداً .. اضاف الى قلبه درعا واقية هي الحب .. لم يكن افراد
الفصيلة قد تقدموا اكثر من مائتين من الامتار عندما انصب عليهم
وابل من الرصاص .. في تلك اللحظة صرخ الملازم ممدوح صرخة
مدوية .. صرخه عجيبة ، جعلت جميع افراد الفصيلة يستعيدون
وعينهم بطفرة عين ، بحيث لم يعد للمفاجأة اللئيمة ذلك الاثر الذي

كان ينتظره الاعداء ، وانقلبت فكرة الاغتيال الخسيس الى معركة حقيقية .

لقد كانت صرخة الملازم ممدوح في الظلام ايعازا موجها الى كل جندي من جنود فصيلته .. ايعازا لم يفهموا منه كلمة واحدة ، لقد ظن كل جندي من جنود الفصيلة ان اليعاز موجّه اليه ، فاستعاد رباطه جأشه ولقم سلاحه ، وراح يطلق الرصاص بثبات نحو فلول العدو التي راحت تراقص في الظلام.. اما الكلمة الحقيقية التي هتف بها الملازم ممدوح فهي (لقد قتلوا ابنتي) .

وهكذا كان الحقد .. انه عنصر اضيف الى تركيب صدر الملازم ممدوح .. وبهذا ارتفع الى مستوى انسان جديد ، لقد كانت فكرة العدو هي اغتيال الملازم ممدوح مع فصيلته ، وفعلا كانت الرشة الاولى موجهة الى صدره .. فسقط .. ورفع يده اليمنى وتلمس جبينه واخرج الصورة .. فأحس من بين اصابعه بأن الصورة مثقوبة في مكان جبين الصغيرة التي تبعثرت على جانبه خصلة مشعثة من الشعر .. وكان سائل حار يتدفق من مكان الجيب فصرخ بكل ما اوتي من قوة « لقد قتلوا ابنتي » . وتركزت في رأسه هذه الفكرة: انهم قتلوا ابنتي ولكنهم لم يقتلوني، قد تكون ابنتي ماتت ، ولكنني انا لم امت ، انا لا ازال حيا ،

ويجب ان اتقم لها .. لهذه البنت الصغيرة .. هذه البنت هي ثمرة
سبعة وعشرين عاما من البحث عن الحب والسعادة والاستقرار ..
لقد اخذوا سعادتي .. اخذوا حيي .. اخذوا كل شيء .
وحمل الملازم ممدوح صدره الثقيل الذي ضم بين ضلوعه رشة
من الرصاص ، وزحف باتجاه المغتالين صائحا بجنوده : الى الامام .
وكانت معركة اسمها معركة طبريا ..

★ ★ ★

رسالة غدير مضمونة

لعل غطاء المظروف بلسانه ، وأدخل اصبعه في داخله يتحسس شيئاً وهو يمصّ شفّتيه باطمئنان . ولعل الغطاء مرة ثانية ، وبعد أن أحكم لصقه وضعه على حاجز الدكان الخشبي ، وأهوى عليه بقبضة يده النحيلة . وحين تأكد من أنه أغلق جيداً تناول قلماً من جيب سترته الداخلية وخط عليه جملة ثم توقف ، ورفع القلم الى عينيه ثم ضغط على دافع الحبر ، فسقطت على وجهه المظروف نقطة كبيرة ، وتابع الكتابة .

- حمص ، قرية الزيوانة ، بيت محمد عبد القادر محمد .
ورفع الغلاف الى شفّتيه وراح ينفخ فيه حتى جف الحبر فقلبه ، وخط من جديد :

- المرسل احمد محمد عبد القادر محمد مدرسة زياد بن أبيه .
وتأمل البقعة الزرقاء التي تبرج على وجه المظروف بأسف كبير ، وهمّ أن يفعل شيئاً كأن يغيره من أساسه غير أنه

توقف عند فكرة لصق الطابع من جديد ، فنفي الفكرة بهزة
طفيفة من رأسه . وتتطلع الى البائع بتهيب وسأله :

- بالله أين صندوق البريد؟!

ولم يسمع البائع السؤال لأول وهلة ولكنه أجاب بعد قليل :

- صندوق البريد .. في الشارع الأيمن على يدك اليسرى .

وهز المعلم رأسه وتمتم : شكراً .

وهم بالسير فاستوقفه صوت البائع :

- استاذ .. ثمن الطابع اذا تريد .. .

وكان المعلم قد نسي فعلاً في غمرة انشغاله أن ينقد البائع ثمن

طابع البريد . فجمد في مكانه لحظة وقد أحس كأنه ارتكب

عملاً شائناً ، كالسرقة ، او الاحتيال أو ماأشبه ذلك ، وتقدم

من البائع وعلى وجهه ابتسامة مذنبه وأراد أن يعتذر فتلون وجهه

وأدخل يده في جيب بنطاله انخلفي وسحب منه بصعوبة ورقة

مالية . ومدها الى البائع :

- هل لديك صرف هذه الورقة؟.

وتناول البائع الورقة وقلبها على وجهها وتأمل زاويتها ببعض

الاهتمام ثم ارتسمت على شفثيه ابتسامة ذات معنى . وأعاد الورقة

الى صاحبها قائلاً :

- أعطني غيرها من فضلك ..

وأجاب المعلم بصوت حاول ان يكسبه صفة التحدي :

- هذه ورقة من فئة خمس الليرات .
وأجاب البائع بلهجة العارف الخبير :
- هي كذلك ، ولكنها قديمة . . انظر الى التاريخ .
وتأمل الشاب التاريخ بيد مرتجفة . وسرت الرجفة الى صوته .
- ألا تمشي ؟
وعقب البائع ببحث :
- ولا تزحف . .
وبدا المعلم وكأنه أصيب بانجبل ، وقد دل صوته على ذلك .
- ولكني قبضتها منذ ساعة . . من بائع متجول .
وأدرك البائع انه تجاه رجل حلت به مصيبة لا يستهان بها
فأراد أن يواسيه ، فقال محتدأ :
- أين هذا ابن الحرام . ؟
ولم تشف هذه الكلمة غليل الشاب لحظة ، ثم تحسس
المظروف في جيب سترته الجانبية فاطمأن عليه ، ومد يده الى
جيب بنطاله وأخرج منه ورقة جديدة وفيما كان يسترد البقية
من البائع راح يخالجه الشك في صحة قوله . لعله رفض الورقة
لأنها بالية ، أو أنه لا يحمل بقيتها .
وعاد يسأل وهو خائف سلفاً من الاجابة .
- ألا يصرف البنك نقوداً مهترئة ؟

فرد البائع مستنكراً :

- مهترئة .. قلت لك قديمة ألا تصدق .. أين كنت منذ
سنة ؟ ألم تقرأ اعلانات وزارة المالية ..

وسار المعلم نحو صندوق البريد ، وهو يقلب الورقة بين
أصابعه والحزن يفيض من عينيه وزوايا فمه . وراح يحسب كم
تبقى من راتبه . وقفز قلبه من بين ضلوعه ، ترى كيف حال
الاوراق المالية التي أودعها الرسالة .؟ وتحسس المظروف مرة
أخرى . ثم توقف فجأة وتطلع الى الخلف أمام الدكان وهو
يحدث نفسه تراه أسقط شيئاً .. وحسب : مائة في الظرف
وخمس في يده ومد يده الى مؤخرة بنطاله ..

ودفع بالرسالة الى صندوق البريد ، وقذفها بقوة فارتد الغطاء ،
وامتدت يده بصورة عفوية الى أسفل الصندوق . ثم استدار
وقفل راجعاً ، يمشي على غير هدى . ترى هل يعثر على البائع
الذي غرر به .؟

وتصوره بلحيته النامية ، وطاقيته العتيقة وسرواله الذي يكنس
الارض بين قدميه ، وعندما وصل بتصوراته الى سحنته القائمة
وصوته الفظ شعر بالضعف والتخاذل . وحدث نفسه : واذا
رفض ان يردّها .؟ من السهل أن يقول له إنه لا يعرفه وإن

آلاف الزبائن يشترون منه كل يوم ثم يختم مناقشته بكلمة نائية
يصيح بعدها :

- سكري يارتقال .. سكري .

وماذا قال بائع الطوايح .؟ اعلان من وزارة المالية .. أين
ستتاح لي فرصة قراءته .. أمام اعمدة الترام .؟ وقفزت الى رأسه
في تلك اللحظة ذكرى مرعبة ، ذلك أنه وقف مرة أمام احد
الأعمدة ليقرأ اعلان نعي احدى المعلمات من معارفه ، واذا بيوق
سيارة مسرعة يدوي في أذنيه ، فقفز كالأرنب المذعور ، وظلت
السيارة منطلقة فوق المكان الذي يقف فيه ، وتلمس بعدها
جسده بشك كبير . ترى أما زلت حياً أرزق ؟

أما ذلك البائع المحتال فسوف يعثر عليه ، ثم يرجوه ويتوسل
اليه ، ويقنعه منطقياً بأنه تقده خمس ليرات قديمة عندما استرد
منه بقية ثمن البرتقال الذي ابتاعه . اما اذا رفض فسيصيح به
على مسمع من الناس (ايها اللص ! ايها المحتال !) وسيجتمع
المارون والشرطة ، فيقودونه الى المخفر .. ولكن .. ترى هل
سيقف البائع صامتاً مكتوف اليدين .. ما أكرمه ان مد يده الى
جيب سرواله العريض واعطاه بدلاً منها ورقة جديدة ، عندها
ستنتهي القضية . ثم عاد يتصوره يصيح بصوته الخشن :

- سكري يارتقال .

ويداه الكبيرتان الخشتان تدفعان العربية المكتظة ، ثم تتلقف
الاوزان الحديدية المصفوفة امامه . ماذا يحدث لو قذفه بأحدها..
يا لها من مهزلة !. لصوص يسرقون الناس على قارعة الطريق !.
وهم اقوياء بأجسادهم والسنتهم ، لا ينجلون ولا يرف لهم جفن
اما هو فضعيف بجسمه ولسانه .. لم خلقه الله ضعيفاً هكذا حتى
انه لا يستطيع ان يدافع عن ابسط حق من حقوقه .؟ وارتعش
حين وصل بتفكيره الى الله ، وأوقف افكاره عند هذا الحد .
وأحس باصابعه المتشنجة تصارع الورقة البالية ، وتمضغها دون
هوادة . فأخرجها ، ومهدا قليلا ، ثم طواها وأودعها جيبه
الداخلي بعناية .

ها هو ذا يعبر شارع صلاح الدين دون ان يشعر . ووجد
نفسه يسير بالقرب من المكان الذي كان يقف فيه بائع البرتقال
أمس . فتنفس الصعداء ، بعد ان كان قد حبس انفاسه مدة
طويلة ، وتوقف امام بائع صحف، ويداه في جيبه . وتصور سحنة
غريمه البغيضة ، وتخيل نفسه في ليلة مظلمة قد اقفر فيها الشارع
ما خلا البائع الذي كان يعد غلته ، مغفلا كل ماحوله ، وانه
سار اليه من الخلف وامسك به من عنقه ، بأصابع فولاذية ،
وجذبه بقوة وعنق الى الوراء ، وان البائع فقد توازنه ،
وتهاوى بين اقدامه ، فأنهال عليه لكما وركلاً وتمزيقاً ، وان

البائع الفظ جعل يبكي .. يبكي كطفل صغير ويئن ويتوسل اليه
وانه وقف هو فوق رأسه مكتوف اليدين ، ضاحكا على ذله
وضعفه ، ثم بصق في وجهه ، وتركه وحيداً دون أن يعبأ
بصراخه الذي يفتت الا كباد ..

ويبدو ان المعلم كان يقرأ الجريدة وهو يسبح في تخيلاته
بدليل أنه قرأ العنوان التالي في جريدة دمشق المساء (وحش
سوق النسوان يساق الى العدالة ، النيابة العامة تطلب اعدام الوحش).
وتأمل في صورة القاتل بعين خافية ، فوجده بشراً من
فصيلته . شاب عادي ، وربما يكون معلم مدرسة مثله تماماً .
انه ليس وحشاً كما تزعم الجريدة ، ومع ذلك فيشئق ،
وأحس بفتة بالقشعريرة تسري في اوصاله ، وبالضعف يتسلل الى
انفاسه ، وبجبل المشنقة يضغط على بلعومه ، فامتدت اصابعه دون
وعي الى رقبته تحل العقدة المنكشة . ستكتب عنه الصحف :
(وحش الليل ، جريمة الموسم ، معلم مدرسة يقتال بائع برتقال)
وماذا سيكون رد الفعل عند امه المسكينة ..؟ ستفقده . وستبكي
ومن أين ستجلب المال بعد ذلك .؟ وأخته ستبيع نفسها الى أي
شيطان ، ليس لهما من احد سواه . ولكنه عاد يطمئن نفسه
عندما وصل الى هذا الحد (مائة ليرة سورية ستصلها غداً
صباحاً) .. ولكن ترى ماذا لو ضاعت النقود .؟ وأحس بفتة

بفؤاده يغور في الأرض ، ماذا لو ضاعت الرسالة كلها . ؟ اليس
من المحتمل ان تفقد .؟ لقد أرسلت النقود في رسالة عادية . .
رسالة غير مضمونة . ولكن لم هذا الخوف كله .؟ هل خشوتها
ذهباً .. ولكن نعم مائة ليرة .؟ انها اغلى من الذهب .
ووجد نفسه يسرع الى بائع الطوايح ، كان طيباً حياله ،
ألم ينعت بائع البرتقال باللص .؟ لاشك انه رجل غيور ..
وزف اليه الرجل بشري جديدة لا تقل عن سابقها اثاره .
- هل وضعت الرسالة في صندوق البريد .؟ أظن ، لم يعد
بالامكان استردادها ، دعني اهمس بأذنك . انها ضاعت .. لا ..
لا تفتح عينيك هكذا .. لقد حضر الساعي منذ قليل بكيسه
المكتظ وطلب باكيت فيليب موريس نعم .. كان يبدو كمن
هبطت عليه ثروة مفاجئة . انه لم يربح ورقة يا نصيب كما أعلم ..
كان يأتي كل مساء ويشترى خمس سيكارات ريجي اما الآن .!
دعني اهمس بأذنك ان لساعة البريد حاسة لمس غريبة وأن
لأصابعهم انوفاً كبيرة ، تشم رائحة الفرنك على بعد مائة خطوة .
يكفي أن يدس احدهم يده في صندوق البريد ، ليحسب الثروة
التي سيملكها .. أفي رسالة عادية .. ترسل هذا المبلغ .. فظاعة .!
وعلى أي حال ، هه سأساعدك اذهب الى ادارة البريد ،
هل تعرفها .؟

ووصل المعلم الى دائرة البريد ، ووقف يزدرج انفاسه .
نوافذ كثيرة مفتوحة امامه ووراء كل نافذة وجه جديد ،
الحوالات ، الامانات ، البريد الجوي ، الودائع .. الى أي نافذة
يذهب .؟ وتقدم الى اقرب نافذة امامه . وكان وراءها شاب
صغير وبدا منهكاً في تصفح صورة عارية ، وحزمة من شعره
تغطي نصف جبينه الأيسر ، ووصلت الى أنفي الشاب من بعيد
هذه الكلمات .

- ياسيد ، لقد أرسلت رسالة عادية و . . .
ورفع الموظف الصغير رأسه الى الخلف ، فقفزت حزمة
الشعر في الهواء ثم حطت في مكانها على جبينه .
- ماذا .؟ رسالة .؟ هنا الودائع ياأستاذ . . ورجع يتصفح
صورة فتاة تقفز الى البحر .
واقرب المعلم من النافذة الثانية ، كان وراءها شاب نحيل
جداً يعبث بساعته اليدوية وتناهت الى أسماعه شكوى .
- لقد أرسلت رسالة عادية وأريد أن . . .
ورفع الموظف يده وكأنه يطرد ذبابة . . واستمرت الشكوى :
- أريد أن أجعلها مسجلة .
وطرد الموظف الذبابة مرة ثانية ، وعادت الذبابة تطن :
- لقد أخطأت ، وضعت فيها تقوداً .

وعندها انفجر وراء النافذة صوت كالفتاشة .

- قلت لك هنا ليست الرسائل ..

وسقط على الارض يبحث عن نابض الساعة الذي أفلت .
وشعر المعلم بأنه يود أن يبكي على الاقل ليعث في نفسه بعض
الراحة .. ودخل مرأ طويلاً ، يجب عليه أن يطرق الأبواب ..
في الغرفة الأولى قيل له ان يذهب الى قسم التسجيل وفي الثانية
أمر أن يذهب الى قسم الفرز ، ودخل غرفة صغيرة انها قسم
السوق . كان فيها موظفون بألبستهم الرمادية ، واقفين على أهبة
عمل ما ، وقد اشتركوا في مناقشة حامية ، وصوت أحدم
يطغى تقريباً على أصوات المجموع ، كان يصيح (نعم . . أسوة
ببقية الموظفين .. نعم نحن خلق الله أيضاً .. الحقوق .. أن
الضمان اذن .؟) وخرج الجميع دفعة واحدة ، وبقي واحد فقط
فتعلق المعلم بكتفه (لي رسالة و ..) فأجاب وهو يخرج بدوره:
أنا الآذن ياسيدي .. وبقي المعلم وحيداً ، والاصوات تطن في
أذنيه . وشبك يديه وراء ظهره ، وهز كتفيه وهم بالخروج
ولكن شيئاً ما جلب انتباهه ، سلة كبيرة مملوءة بأوراق ممزقة ،
واقترب منها محاذراً ، وفتح عينيه .. وتقدم أيضاً .. ثم انحنى
وحدق ليتأكد جيداً مما يرى ، ثم ففر فمه وهو في غاية الفزع ..
كان هناك غلاف مفتوح على حده دمعة زرقاء .

المجاهدون

منذ اكثر من عشر سنوات واهالي القرى العربية على الحدود الفلسطينية يعيشون في جو من النار والدخان ، لا يسكتون على عدوان ويقاومون الرصاص بالرصاص ، ويصمدون للنوايا العدوانية باليقظة والحذر . دون ان يفت ذلك من عضدهم بل يجعلهم على الدوام يعيشون مؤمنين باصرار بانهم لن يتخلوا عن شبر واحد من الارض.



رفع المجاهد محمد عبد الله السليمان رأسه من جوف خندقه ، واشرف بعينه السوداوين الحادتين على سطح بحيرة الحولة . لقد اصبح كل شيء هادئا ، والماء راكدا ركودا تاما ، لا يعكر صفاءه غير خط ابيض متعرج ، يصل ما بين مستعمرة زبيدة والدردارة اليهوديتين ، هذا الخط الذي رسمه من قبل زورق حربي يقل ثلة من الجنود الى المستعمرة الثانية .

وبالقرب من الشاطئ كانت وزتان تغطسان في الماء ، ثم ترفعان رأسها لتبتلعا السمك الذي اقتنصته من الوحل وكانت

الشمس تثبت اشعتها المائلة على سطح البحيرة ، تعكس النور على صفحاتها وتفرشه في الاتجاه الشرقي حتى يشمل كل شيء .

وعلى بعد قليل من الوزتين كانت ثلاثة اطفال عراة لوحث الشمس اجسادهم ، يغطسون في الماء الضحل غائصين برؤوسهم الى الاسفل مقلدين حركة الاوز . ومن بعيد ، عبر بستان الخوري ، كان صوت محرك يهدر باستمرار ، حتى ليكاد صوته يضحى قطعة لا تتجزأ من الصمت المطبق .

وارخى محمد عبد الله السليمان رأسه قليلا ، ولكز أخاه قاسم عبد الله السليمان وكان مستلقياً الى جواره يعانق بندقية جديدة .

- قاسم !. مارأيك بأكلة لحم ؟.

وتملل قاسم في خندقه الرطب ، وكأنا قطع عليه سلسلة احلامه الهنيئة ، وغمغم بصوت يخنقه الضجر :

- لحم اولاد ؟.

وضحك محمد ساخراً ولم يجب . غير انه اسند بندقيته الى كتفه وضغط الزناد .. وافترش صوت الانطلاق البحيرة على سمعتها ثم تجاوزها غربا فاصطدم بالجبل المقابل ، وابتلغته الشمس الغاربة بعد ان احدث صوتا يشبه ملايين الاجنحة المصفقة . وصرخ الاطفال واقضوا كالنسور على الاوزة التي فقدت توازنها ، وهوت مصعوقة

مرتجفة ، ولم يطل محمد النظر الى البحيرة ، بل اخرج جبلاً من جيب سرواله وراح يدخله في فوهة البندقية لينظفها .

وعاد الهدوء يرين على المنطقة بأسرها مشوباً بالتحفز والدهش . فقد توقفت مواشي قرية جيلبينة فترة عن الاجترار وحركت اذنانها حركتين ثم ما لبثت ان عاودت عملها بهدوء . ولمواشي هذه القرية قصة محزنة ، الفتها على مر الايام ، وهي انه كثيراً ما يقطع عليها جبل الصمت ، لتفاجأ بوضع قنابل هاون او قذائف مدفعية ، تسقط بينها فجأة دون مقدمات فيرتمي بعضها في ارضه ، ويتبعد بعضها الآخر قليلا عن المكان ليعاود الاجترار بهدوء . ولعل انفجار الطلقة في هذا المساء جعلها تهيب نفسها لاتخاذ اجراء ما ، فقد الفت هذه العادة واصبحت اكثر حذرا ، خاصة في الايام الاخيرة .. ولعل احجار القرية السوداء نفسها تشارك الحيوانات نفس المصيبة ، غير ان سوء حظها يجعلها غير قادرة على اتخاذ اي اجراء . اللهم الا انها تتساقط في مكانها دونما ضجة . اما سكان القرية فيمكن القول انهم الوحيدون الذين اصبحوا يتلقون الامر دون مبالة ، وذلك لانهم آنسوا في انفسهم القدرة على النجاة دون اتخاذ اي احتياط .

فمنذ اكثر من عشر سنوات والقرى العربية على الحدود

الفلسطينية تعاني من المداعبات الماثلة ، وقد تصاب احيانا امرأة مسنة من جراء هذا العدوان المستمر - ولنسم هذه القنابل باسمها الحقيقي - إلا أن ذلك لم يفت في عضد أهاليها ، بل جعلهم على الدوام يعيشون في جو من الحقد ، مصرين على ان لا يتخلوا عن شبر واحد من الارض .

وفي مساء احد الايام كانت فئة من مقاومي القرية تتسلل الى الخنادق المحفورة في التخوم . صاح شيخ بالاخوين عبد الله السليمان :

- مساكم الله بالخير .

فرد الاخوان :

- مساك الله بالخير .. شو الخبر ؟ .

فأجاب الشيخ وهو يتجشأ مائلا جو الخندق برائحة البصل :

- جاءت الاوامر باحتلال الخنادق .

وكان الشيخ قائداً للمقاومة الشعبية في القرية .. في حوالي الستين ، كثر الشارين ، خفيف الاحية ، برزت قبضة من الشعر من تحت عقاله ، تقلد بندقيته على طريقة الجنود ، واتعل بسطارا عسكريا من لون التراب ، وكان لون شاربيه ولحيته بلون الخنطة الناضجة . وراح يوزع رجاله على اليمين واليسار والوسط ، ملقيا بعض الاوامر والتوجيهات المناسبة . ويقال إن جميع رجاله يهابونه ويحترمونه ، لا كواجب من مرؤوس تجاه رئيس ، وهو الشيء المتعارف عليه عسكريا ، ولكنه نال هذه المنحة عن جدارة

واستحقاق . فأبو المحاميد - وهذا هو اسمه - اشتهر بارادة تفل الحديد ، وآخر حادثة له منذ اسبوع هي انه بينما كان يحرث توغل في الارض العربية غرباً حتى آخرها ، وهناك اصطدمت سكة محراثه بسلاسل التراكاتور اليهودي ، فتوقف المحراث والتراكاتور معا فضحك اليهودي وقال لابي المحاميد شيئاً في لهجة ساخرة ويفسر ابو المحاميد ما قاله اليهودي بما معناه :

- ابتعد او ادهسك انت وثورك ومحراثك تحت التراكاتور .
ويقول ابو المحاميد إنه اجابه بسخرية بمائلة :

- انت وتراكاتورك ودولتك ما بتعلق على صرمايتي .

وخطب قدمه على الارض مشيراً الى حذائه وطبعاً لم يسمع احد من الناس هذا الحوار ، غير انه شوهد من قبل جميع سكان القرية ، يقف فترة من الوقت في مكانه ، حتى ان المقاومين اتخذوا اماكنهم للدفاع . وقد تدخل المراقبون الدوليون فعلاً قبل ان يتطور الحادث .

وما ان وزع ابو المحاميد رجاله ، في امكنتهم وكان الظلام قد بدأ يرخي سدوله ، حتى اتضح جانباً بمحمد وقاسم العبد الله

السليمان وأمرها بالرجوع الى قرية الجليبية لينالا قسطا من الراحة
والعودة حين سماع الرصاص . ثم عاد الى رجاله .

وكانت السماء صاحية ، واخذت الضفادع تنق وهي تستنشي
رائحة الربيع وشعر المقاومون بان الغد يحمل اليهم احداثاً حمة .
وهتف صوت حاد النبرة :

- الله يعطينا خير هذه الليلة .

فأجابه ابوه ، بصوت شبيه بصوته :

- ولك مرعي ، والله ان ما كنت ابن ابوك لاذبحك قبل ما
يذبحك اليهود ..

فأجاب الابن :

- ولو يابا ، اذا ما كنت ابن أبي فسأقتل نفسي قبل ما
أحد يقتلني .

وكان الشيخ أبو المحاميد خلال ذلك يقول :

-«اسمعوا يا اولاد .. جاءت اخبار بان اليهود يجمعون قوات
ودبابات في بستان الخوري وكعوش وتليل وزبيدة وقد يهجمون
علينا ويمكن الرافعة بدهاتشتغل بالحفر غداً . ويمكن تشتغل الآن في
الليل ، مش لازم نتركها تعمل . بكرة اذا جفت مياه الحولة

ما يقاش فاصل بيننا وبينهم ، فيتسللوا علينا كل ليلة ، وتصير
مقاومتهم صعبة .. ويستولوا على ارضنا ، ويذبحونا و .. »

وكان الرجال يشدون على بنادقهم الجديدة ويحشونها بالرصاص
ويقاومون النعاس . وفي خلال الليل مرت عليهم ثلاث دوريات
صديقة ، عادت آخرها مع صياح الديك ..

وفي عصر اليوم التالي كانت الزائفة قد عطلت ، وتصاعد
الاهب والدخان في الافق الغربي ، ونشط مراقبو الهدنة بصورة لم
يسبق لها مثيل .

★ ★ ★

فهرس

الصفحة

٥

حتى القطرة الاخيرة

١٥

حفنة من تراب

٢٨

يا أبنائي

٣٥

المسافر

٤٤

شجرة البطم

٥٧

نداء الوطن

٦٦

الدخان

٧٩

العدم

٨٨

الحقد

٩٦

رسالة غير مضمونة

١٠٦

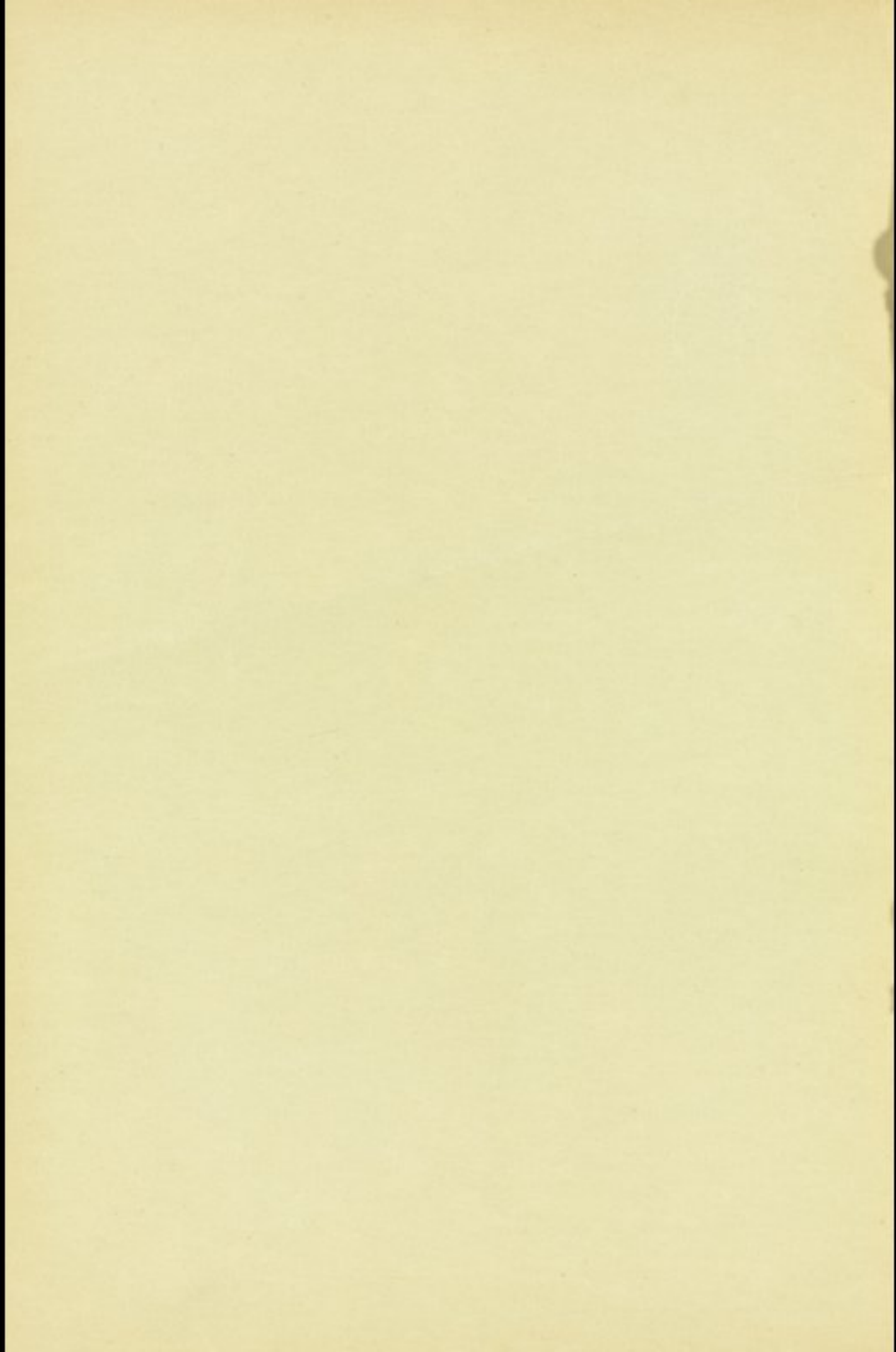
المجاهدون

مطابع دارالحدیث کراچی

۱۱۰۱۱

۱۹۶۱ / ۵ / ۳۰

۱ / ۲۰۰۰



ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر بدمشق

وزارة الثقافة والارشاد القومي - مديرية التأليف والترجمة

حتى القطرة الاخيرة

فارس زرزور

السلسلة القصصية

U. S. F. O. 200



COLUMBIA UNIVERSITY



0026813416

956.9

Sy27

2

OCT 1 1964

956.9 - Sy27

2